نورة محمد

دمٌ فاسد

رواية



الكتاب: دمٌ فاسد **Bad Blood**

المؤلف:نورة محمد **Noora Mohammad**

تصميم الغلاف: رفعة العجمي

الناشر: قنديل للطباعة والنشر والتوزيع

ص: ب: 71474 شارع الشيخ زايد

دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

الموزّع: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تشرين الثاني 2015

ISBN: 978-9948-18-899-5 - الإمارات العربية المتحدة

ISBN: 978-614-432-508-7 - لبنان

أنجزت هذه الرواية بإشراف الروائية نجوى بركات، في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة

عن برنامج دبي الدولي للكتابة

أطلقت مؤسَّسةُ محمد بن راشد آل مكتوم في عام ٢٠١٣ «برنامج دبي الدولي للكتابة» بهدفِ دعمِ المؤلِّفين الإماراتيين والعرب والوصول بهم الى العالميَّة، وتمثِّل هذه المبادرةُ جزءاً من المبادرات التي تطلقها مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم تباعاً، ومن شأنِها الارتقاءُ بمستوى المجتمعِ العربيِّ فكريّاً وأدبياً.

وقد جاءت هذه الرواية ثمرة ورشة التدريب التي امتدت طيلة عامٍ كاملٍ، حيث استفاد روائيون إماراتيون من التدريب على أساليب الكتابة الروائيَّة الصحيحة، وبتقنية احترافيَّة تُمَكِّنُهم من وضعِ نتاجاتِهم موضِعَ التقديرِ بين مصافّ رواياتٍ متقدِّمةٍ.

ويتضمَّن «برنامج دبي الدولي للكتابة» ثلاث مراحل: الأولى تستهدفُ مِئَةً من الشباب الكُتَّاب والمؤلفين من

مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة، والثانية تستهدفُ مجموعةً من الكُتَّاب الشَّبابِ من الإخوة العرب المقيمين على أرض الإمارات، وأخيراً ستستهدفُ المرحلةُ الثالثةُ عمومَ المؤلِّفين الشباب من الإخوةِ العربِ في الوطنِ العربيِّ الكبيرِ.

ولن يقتصرَ دعمُ المؤسَّسةِ على نشرِ المؤلَّفاتِ للأعضاءِ في البرنامجِ، بل يتعدَّاه إلى تقديمِ العونِ اللازمِ للمؤلِّفين؛ ليتجاوزوا النطاقَ المحليَّ وصولاً بهم إلى العالميَّةِ.

جمال بن حويرب
العضو المنتدب
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

الإهداء

إلى أمي، النبض الذي يعيش فيّ ومن دونه أختنق
وإلى الذي لا يثق بموهبتي وأحبه جداً ومن دون لا أكون...

1

لم يُغلق الباب جيداً. ثمّة بصيص ضوء ينبثق منه، برتقاليّ اللون باهت، طويل يصل إلى أطراف سريري، كصاحب الظل الطويل. أجلس على الطرف الأيمن من السرير، متكومة على نفسي خلف تلك الجبال الشاهقة التي يطل منها الضوء خجلاً. أراقب خطوات أمي و أبي المولودين حديثاً لي، في سن العاشرة، واللذين قرّرا أخيراً أنني الكتاب الجديد بالاقتناء.

خطواتٌ رماديّة ترتسم على الأرضية الخشبيّة في غرفتي، ذهاباً وإياباً. تارةً هي لساق امرأة فاتنة، وتارةً لرجل طويل القامة هزيل. لا أعرف ما هو سرّ هذه الخطوات المنمّقة، أو ما هو سرّ ذلك التوتر الذي يزرعانه في الطفلة الورديّة كجدران غرفتها؟ لا أعرف ما خطبهما؟ لكنه حتماً شيء يخصني، فأنا كتابٌ جديد عنوانه «الابنة الملائكية الورديّة»، اسمه هند ابنة عبدالله ، الاسم الذي وضع لي لإجراءات الجواز والجنسيّة .

هما لا ينامان باكراً ! وخطواتهما بدأت تزعجني، ترسم أجساماً مخيفة لونها دامسٌ وبلا ملامح، كالليل بلا نجومٍ أو قمر. تعبت من

مراقبتهما وقد غازل النوم عيني. إنها العاشرة مساءً، يبدو أنني اعتدت النوم على قصّة سندريلا بعد العشاء، وعلى قبلة تُطبع على جبيني. ابتسامة منّي لثقل الكلمات في فمي، وبعد أن تسلل النوم إلى جفنيّ فانسدلا برقّة. هكذا تفهم أمي أنني تأهبتُ للنوم.

قصة ساندريلا كانت رفيق سفرٍ ممتعٍ. تُسرد كل ليلة. نتشاجر على ألوان الفساتين التي ترتديها في الليلة الساحرة، ليلة لقائها بالأمير. تهرب ساندريلا بعد منتصف الليل، وفي كل ليلة، نتشاجر على لون الفستان ! لكن، قبل أن تطردني ماما مريم الكبيرة بحجّة أنني فتاة مراهقة لا تستطيع تربيتي، لأن «تربية البنات صعبة» ! مع أنها في الحقيقة كانت ترفض وجودي لأن العائلة لا ترغب إلا الدم الصافي. وأنا ؟ صاحبة الدم المُلوّث، الدم الذي خرج معي من رحم أمي التي لا أعرف من هي. عربيّة أم أجنبيّة! يُقال إنها ليست عربيّة لأن عيني خضراوان. ربّما هي خادمة، أو سائحة في رأس الخيمة! المهم، أنني سقطتُ سهواً في حضن أمي سارة، أمي الثانية بعد الأم القذرة التي تركتني أمام المنزل المهجور في الجزيرة الحمراء. أمي التي أتت إلى الدار حيث أقطن مع العشرات من الرُضّع، واختارتني لجمال لون عيني، بعدما حُرمت من الإنجاب سبع سنوات. اختارتني أنا !

لا يهم، المسرحيّة المنطرحة على أرضيّتي ما زالت تتحرّك ! أعتقد بأنهما يريدان مفاتحتي بقواعد المنزل ! أو ربّما... لا أعلم . لن أخرج. إن كان هناك أمر يريدان إخباري به، ستتوقّف خطواتهما، ستفنى كهامش دفتر تنتهي أهميّته بمجرّد انتهاء تعديل المسودة.

سيتحدّثان، أنا أعلم، لكنهما فقط لا يعرفان كيف يبدآن الحديث مع المخلوق الجديد في منزلهما الخالية جدرانه من خربشات الأقلام، أو من زجاج نافذة كسرته الكرة التي يشتكي الجيران منها. في الحقيقة، هما يتمنيان الزجاج المكسور والخربشات والفوضى. يوم أتيا لمقابلتي، سمعت الحاضنة تقول: لم ينجبا، منذ سبع سنوات لم ينجبا، حتى مع سفرات العلاج الطويلة.

انتهت المسرحيّة. اعتدلت في جلستي وتربّعت، ورحت أتأمل العالم الوردي الذي سأعيش فيه، ربما لبقية حياتي. غرفةٌ بيضاء ترتدي ورق جدران مزخرفاً بورد مرسومٍ بدقّة، مستورد من أوروبا. السرير الذي يحتضنُني فيكتوريّ أبيض، أظنّ أنه من إيكيا، خلفهُ نافذةٌ تطل على الفراغ القاحل وراء المنزل، تغطّيها الستائر الورديّة بلون وجنة الأطفال. على الطرف الأيمن حيث كنت أجلس، في الزاوية، ثلاثة رفوفٍ للكتب. إذاً هي عائلة تُقدّس الكتبَ والثقافة! إلى جانب هذه الرفوف، في القاع، أريكةٌ زهريّة أمامها طاولة زجاجيّة تشفّ عما تحتها من أرضيّة خشبيّة، ثم غرفة الملابس الممتلئة بالخزانات المغطّاة بالمرايا. وكأنني يجب أن أراني وأراقب تغيّرات جسدي هنا! ثم حمّامي الخاص! الحمام الذي اعتقدتُ بأنه للمتزوجين حديثاً فقط. كبير، كبير جداً. لونهُ كلون السماء الزرقاء الصافية، تزيّن خصره الزهور نفسها التي تملأ جدران غرفتي. بعد غرفة الملابس، عند الزاوية، أبجورة طويلة ساقها خشبيةّ ورأسها أبيض، وقبالة سريري، في الأعلى،

مكيّف فاتحٌ فاهُ يتأفّف، نافثاً هواءهُ في وجهي. ثم الباب الذي أشاهد منه المسرحيّات ليلاً، يكسوه البياض وأخاف لمسه كي لا يتّسخ ويتلوّث بلون يدي القمحيّ. مكتب صغير على يساري يحمل شاشة لاب توب غطاؤه وردي ماركة آبل.

2

استلقيتُ على السرير على بطني، ودفنتُ رأسي كالنعامة في حضن الوسادة، وكأنني لا أريد هذه العائلة، لا أريدُ منها أيّ شيء جميل. خبّأتُ نفسي عن كل من يراقبني في هذه الغرفة. أريد ماما سارة و أبي أحمد. وإن كان لا يُريدني هوَ.

سأتوسّد قبرها، أحكي لها القصص التي كانت تقصّها علي وهيَ تمسحُ رأسي. سأنام بجانبها، ولن أخاف من الحشرات أو من زقزقة الطيور ليلاً التي تُحضّر الجان للقبور. أعلم أنكِ يا أمّي ستكشّينهم عنّي، سأشعرُ بيديكِ تخرجان من القبر لتطبطب على شجني، حتى لا أحزن على جيري الذي يهزمه توم دوماً.

أغمضت عيني وأجبرتهما على النوم، لكنّهما أبتا إلا أن تُعيدا شريط ذكرياتي الذي كان يمرّ من فوق رأسي كالحُلم. لا أريد تذكّر موتها، سأتذكّر جميل أيامها معي. سأقضي حياتي في الذكريات، لا أريد ذكريات جديدة مع هذه العائلة، فذكرياتي السابقة لم يُغلق بابها بعد.

لم أستطع النوم، فالذكريات التي يغطّيها الغُبار، السيّئة والجيّدة، راحت تتشاجر أمام عيني، كلٌ منها يسحبني من طرف كمّي، يريدني أن أتجوّل في عالمه. انقلبتُ على ظهري، قابلتُ السقف وعيناي

مفتوحتان: اقتربي حتّى أغلقَ عيني عليك، لتنامي داخلي، لن ترحلي. لا أريدُ ذكريات جديدة. لا أريد.

منذ أن بدأت قدماي تدوسان أرض المنزل القديم، وهما تتبعان خطى ماما سارة. كانت قد أنجبت أخي عيسى الذي تحلم به منذ عشر سنوات، لكنها لم تنجبه مع كل رحلات العلاج التي أرهقت نفسها بها. لقد احتضنتني على الرغم من رفضها لي، لدمي الفاسد كما تقول، واحتفظت بي. فبعد قدومي إلى منزلها بأسبوعين، حملت! إذاً أنا بركة! بركة لا يتجاوز عمرها عاماً ونصف عام، حطّت على منزلهم ! ازدادت رغبة ماما مريم في رميي خارجاً، كما كنتُ مرميّةً عند ولادتي. فالآن، لا حجّة لابنتها سارة للاحتفاظ بي. هي حبلى و ستُرزق الطفل الذي كانت تحلم به.

لكن ماما سارة رفضت، حمداً لله أنها رفضت وإلا لكنتُ الآن في الدار، في حضن أم واحدة ترعى قطيعاً من الأطفال الذينَ لا أهل لهم، تحمل عصاها وتهشّ بها على من يعصي أوامرها، كما نرى في الأفلام تماماً. ولكنت أرتدي لباساً موحداً، عليّ أن لا أوسخه، وأن آكل ببرستيج الملوك كي أقع فريسة العائلات الحاضنة الثريّة. حسناً لا أريد التفكير في الأمر حتّى، سأوسخ ملابسي وسأجري وألعب وألبس ما أريد، قميصاً أزرق مع بنطال بيجامة برتقالي لا يتماشى معه أبداً.

أقنعت ماما سارة الجميع بأنني بركة. رغم سنوات علاجها الطويلة، وصلواتها الليليّة الخاشعة، وصيامها وقيامها، إلا أنها لم تنجب إلا بعدما احتضنتني. كبرتُ وكبُرَت بطنها. حان موعد وضع وليدها. وفي الحادي عشر من ديسمبر، وُلِدَ أخي عيسى.

منذ أن خرجتْ من المشفى، وأنا أتفرج على هذا الكائن الصغير

باستغراب. كم مرة رأتني وأنا أحاول نزع عينيه من مكانهما، ماذا ؟ إنهما كرتان وأنا فتاة أحب اللعب. هل يمنع أن ألعب بكُرة بمقاسي؟

- بما أنّك تُرضعين عيسى لا تفطمي هند، أرضعيها خمساً فتكون أخته! حتى يبقى لها وتبقى له عندما يكبران.

قالها بابا أحمد. أعجبتها الفكرة فأرضعتني، أصبح عيسى أخي رسمياً. أو أنني صرتُ أخته.

يوم خرجت من المستشفى، ذهبت إلى منزل جدّتي مريم حيث قضت شهراً ونصف الشهر. لم تكن تخرج قط، كان أبي أحمد يأتي كل يومين ليطمئن على صحتنا، ويأخذني معه في نهاية الأسبوع كي ألعب .

في المنزل الكبير، تعيش جدّتي مريم وأمي سارة والخادمة فقط، وفي عطلة الأسبوع، يوم الجمعة تحديداً، كانت تزورنا العائلة بأكملها ليأكل أعضاؤها ويتحدّثوا عن أيامهم وعملهم، ثم يذهبون! هكذا فقط في كل أسبوع، وكأنه مُحرّمٌ عليهم أن يطبخوا يوم الجمعة في بيوتهم.

بعد أسبوعين من ولادة عيسى، قرّرت ماما مريم أن تحلق شعره. رفضت أمي سارة في البداية لجمال شعره ونعومته، لكنها عادت فرضخت للعادات والتقاليد. في يوم الجمعة، عند اجتماع العائلة، أخذ أبي عيسى إلى علي، زوج خالتي فاطمة، حتى يحلق له رأسه كونه كبيرهم . بكيت كثيراً، خفتُ أن يجرحوا رأس أخي بالشيء الذي يحملونه بين أيديهم. حاولوا إخراجي من المجلس، لكنني رفضت وزدت من حدّة بكائي حتى يتوقفوا عن حلقه. كان عيسى يبكي أيضاً كثيراً، حتى ظننت أن دموعه المُخزّنة في عينيه قد تنتهي الآن لصغر حجمهما، وأن الماء سينفد من جسده!

انتهوا من العمليّة التي كلّفتهم بها ماما مريم التي جاءت لتأخذ الشعر المحلوق. قالت إن العادات والتقاليد تقضي بوزن الشعر حتّى تُخرج زكاةً عنه، على حسب وزن شعره. حمل الجميع كاميراتهم حتّى يقوموا بتصويره بحلّته الجديدة. أمام كل كاميرا، أركض وأجلس بجانبه كما كان يحكي لي أبي أحمد عمّا كنتُ أفعل. إلا أنهم كانوا يبعدونني عنه.

- سنأخذ صورة لك بعد الانتهاء، نريد صورة لعيسى بمفرده، اجلسي هناك يا هند، سنأتي لتصويرك لاحقاً، كوني مهذبة.

جلست في زاوية المجلس، أرتّب كل ثانيتين فستاني حتّى يظهر جميلاً، أجعله يلتف حولي وأنا أجلس على الأرض. ثم أقف، الفستان سيكون أجمل وأنا واقفة. أرفع شعري بيدي. لم يكن طويلاً جدّاً بل كان يصل إلى نهاية أذني.

انتهوا من تصوير عيسى، سيأتون الآن، لكن لا أحد! أتى أبي أحمد وأخذ لي صورة واحدة وذهب ليجلس معهم. انتظرت وانتظرت حتّى نمت في مكاني. لم يأتِ أحد لتصويري.

استيقظت عند الساعة الثامنة مساء، كانت أمي ترضع عيسى. كان شكله غريباً، ورأسه يميل للون الرصاصي المخضّر. كنت أنظر إليها فقط. وهي تبتسم لي. أخبرتها بأنهم كادوا يقتلونه، وأن الدموع كادت تنضب من عينيه، لولا أنهم توقّفوا عن حلقه. تبتسم فقط، هكذا دائماً، تبتسم وتمسح رأسي.

كانت هذه أول حكاية يحكيها لي أبي، وأنا ما زلت أذكر تفاصيلها جيّداً. عدت لنفسي، فتحت عيني، لا يزال عقرب الساعة على الرقم

أحد عشر، يا لبطئه ! أغمضت عيني مجدداً، استسلاماً للذكريات التي تتلاطم في رأسي حتى أذكرها أولاً .

كبرنا، عيسى وأنا، حتى أصبحت في الثامنة من عمري وهو في طريقه حتى يكمل السابعة. أغلب وقتنا كان معاً. بلا أصدقاء يلعبون معنا، أو بالأحرى معي أنا. فعيسى كان لديه الكثير من الأولاد الذين يلعب معهم عصراً في الحي، وأبناء العائلة كل جمعة. أما أنا ؟ فكان عيباً أن يلعب معي أحد أو حتى يتحدّث إلي. صديقتي كانت أمي، وصديقي هو عيسى. أعلم أن ذلك كلّه من ماما مريم، أعلم كم كانت تكرهني. لكنني طفلة، ولا ذنب لي! من حقي اللعب والصراخ، وحتى أن أرسم على الجدران كما هم يفعلون! لم تكوني توبّخينهم كما توبخينني أنا، لم تكوني حتّى تسألين عنّي حينما أغيب عن التجمّع العائلي. كنتِ دائماً ترسلينني إلى الخادمة. حتى آخذ عنها السلوك السيئ لتضربيني، لتصرخي قائلة «تربية خدم"! كي ترسليني إلى الدار كما لو أنني ورقة صفراء خاسرة في ملعبكم.

كنتُ كحاوية القمامة بالنسبة إليها، ترمي عليّ سيلاً من الكلام الجارح القاسي، ودائماً تُذكّرني بدمي الفاسد. هي من جعلتني أصدّق بأنني لستُ ابنة ماما سارة، هي من جعلتني أنام في خزانتي تلك الليلة التي عرفتُ فيها الأمر، هيَ من فرحت عندما بحث الجميع عنّي ولم يجدني! هي شرشبيل العائلة. عيناها بنّيتان كقطرة القهوة في رغوة الحليب. يملأ محيطهما التجاعيد. شعرها برتقالي أو أحمر، لا أعلم، لكنه ليس بلونه الطبيعي لأنها كانت تضع الحناء عليه. والحناء هي

أوراق خضراء يقومون بطحنها ثم مزجها بالماء والليمون اليابس، يغطّون المزيج حتّى يتخمّر، ومن ثم يضعونه على رؤوسهم كالقبّعة.

في الليلة المشؤومة، أتت ماما مريم لتزورنا في منزلنا. استقبلناها عيسى وأنا، ثم ركضنا لنلعب في الغرفة. استقبلت أخي بحفاوةٍ وقبلات هنا وهناك، واستقبلتني أنا «أهلاً، اذهبي لسارة وأخبريها بأني أتيت". هيييه، لستُ الخادمة وأنا أيضاً أخت عيسى ويجب عليك أن تستقبليني كما استقبلته الآن!

لا يهم، ناديتُ أمي، ثم ذهبت إلى الغرفة حتى نكمل اللعب. لم نكن نستمع إلى حديثهما، إلى أن ارتفع لدرجة أنني رحت أبكي من هول ما سمعت!

- سارة، أريد أن أتحدّث معكِ في موضوع مهم.
- بالتأكيد أمي، تفضّلي.
- اسمعيني جيّداً يا سارة، أعلم بأن هذا الموضوع قد يغضبك وقد تحدّثنا فيه كثيراً، لكن وجب عليّ التذكير، فالذكرى تنفع المؤمنين. حين زوّجتكم جميعاً، لم أزوّجكم لفرد خارج قبيلتنا! جميعكم من قبيلة واحدة ودمكم صافٍ، لكن أنتِ يا سارة، ستلوثين دمنا بابنة الخادمة أو السائحة، أو مهما تكن. دمها فاسد ولا تعلمين هي ابنة من، هي ليست ابنتكِ! ولا يُعقل أن تكون أختاً لعيسى. عندما قمت بتبّنيها، كان هنالك سبب يجبرك على التبنّي، أما الآن، فلديكِ عيسى.

- أمي !!
- سارة، من الآخر، غداً تذهبين إلى الدار وترجعينها لهم. لا أريدها معكِ، وإلا أخبرتها عن أصلها، هي على الأقل تفهم الآن.
- أمي! لن أرجعها وهي ابنتي كما أن عيسى ابني. تعلمين أنني أرضعتها بعد إنجابي عيسى. أنا أمها أمي، أنا أمّها ولن أتركها. والفتاة لم تفعل شيئاً، رغم حديثك القاسي ومعاملتك السيئة لها. لم تتذمّر ولم تعد تتحدّث كالسابق. اعتادت هذه المعاملة، حتّى أنني أرسلها إلى الحديقة كي تلعب مع بنات صديقاتي. لا أريدها أن تستمع إلى المزيد منك. يكفيها أنها تربّت وكبرت على كلماتك الجارحة. أرجوك، هذا آخر يوم تتحدّثين فيه عن أصل هند وعن الدار. هند ابنتي ولن يأخذها أحد منّي. أنا راضية بها وأحمد كذلك، وليقل الناس ما يريدون فهم لا يهمّونني.
- إذاً فلتتحمّلي ما قد يصيبك من وراء ابنة الخدم والسيّاح، ابنة الحرام مع دمها الفاسد.
- أمي !!

استمعنا أنا وعيسى إلى حديثهما، كنت أبكي كثيراً، لا أعلم ما هي الدار، لكنّهم سيبعدونني عن منزلي، عن أمي وأبي وعيسى ! حاول عيسى تهدئتي، لكنّه فشل في ذلك، فبكى معي.

- هند، أنا أيضاً ابنِ الخدم والسيّاح مثلك، لأنني أخوكِ. لا تبكي، أنا معكِ، أنا وأمي لن نتركَكِ.

خرجت من الغرفة وركضت إلى الخارج، تبعتني ماما سارة وهي تناديني. تبعني عيسى أيضاً، لكنني اختفيت فجأة. اختبأتُ خلف المنزل. لا أحد يأتي لهذا المكان. جلستُ وحدي، كنت أبكي وأبكي. إذاً أنا لستُ ابنتهم، أنا أمي خادمة! وضعت رأسي بين ركبتيّ، لا أريد أن يراني أحد وأنا أبكي. سمعت صوت أقدامهم وهي تركض وتبحث عنّي. اقترب صوت ماما سارة. تحرّكت من مكاني وركضت باتجاه الباب الخلفي للمنزل وصعدت إلى غرفتي. فتحت خزانتي واختبأت فيها. بكيت حتى شعرت بأنني سأختنق، سأموت. فتحت الخزانة قليلاً، حتى يدخل الهواء ويُحيي النفس فيّ. سحبت أحد قمصاني وفرشته تحتي ونمت. كان الجميع يبحث عنّي، أعلم، لأنني ابنتهم وما حدث أمس، ما هو إلا كابوس تختلقه دائماً ماما مريم. هي تحبني كما تحب أحفادها جميعاً .

استيقظت صباحاً بسبب الألم الذي سبّبه النوم لظهري. ذهبت إلى غرفة أمي ولم أغسل عيني حتّى، دخلت ووجدتها جالسة لم تزل تبكي! وما أن دخلت، حتى قفزت وحضنتني.

- هند حبيبتي، أين كنتِ! كنا نبحث عنك جميعاً. افتقدك عيسى ولم ينم إلا فجراً. ولم يحلُ لي النوم وأنا لا أعلم أين أنتِ. أين كنتِ؟

- هنا ماما، هنا في قلبكِ أنا دائماً .

- أكيد حبيبتي أكيد، لكن لا تعيدي الكرّة. يمزّق قلبي يا ابنتي بعدكِ عني.

- حسناً ماما، أريد نوتيلا.
- هههه، وكأنه لم يكن. أنا أبكي على اختفائك، وأنتِ تبحثين عن النوتيلا. لكن أيقظي بابا أحمد وقولي له بأنكِ هنا أولاً، فقد كان يبحث عنك طوال الليل.

3

وإني أراكِ يا أمي بين العابرين، تبحثين عن غريبٍ تشكين إليه هموماً أرهقت قلبكِ، عما فعله أبي بكِ، عن تركِه لكِ. أنا أعلم بأنك كنتِ تثقين به فقط، لهذا سلّمتِ له نفسكِ. أو ربّما أنكما متزوّجان، لكنكما مُتّما بحادث! لم يكن لديكما أحد ليأخذني ويربّيني. لن أرى شبيهاً لكما، ولا أملك أي صورة تذكّرني بكما.

أبي، إن لم تكن قد تزوّجت أمي وأنجبتماني بالحرام، فأنت مُغفل. انظر إلى عيني كم هما جميلتان، تماماً مثل أمي. لا أشبهك ولا أريد أن أشبهك. ملامحك حادة، صحيح؟ أو دافئة حنونة ولهذا وقعت أمي في حبّك؟ لم فعلتَ ذلك؟ حسناً، لماذا فارقتماني قبل أن ألمسكما! قبل أن تفرحا بخطواتي الأولى وكلمة ماما وبابا من فمي. كيف ذهبتما هكذا؟ لم تتركا لي رسالة أقرأها، أم هي ماما مريم من رمت كل شيء يخصّكما؟ لا لا، أنا فقط متأثرة بالأفلام قليلاً. لكنّني أعلم بأنك، يا أبي العاهر، أنتَ من ترك أمي وتركتها تنجبني في مكان قذر. تركتنا ولم تأت لتراني وأنا أرى الحياة لأول مرّة وأبكي في حضن أمي.

ماتت هي بسبب نزيفها بالتأكيد. لا تستحق حبّها، ولا تستحقّ

ثقتها، والموت هو أقل شيء تستحقّه، أقل شيء. ليتك أنت من مُت وتركتها تربّيني، وتركتني أعيش في قعرها، في حبّها، بين يديها على الأقل. لا أعلم من أنا وابنة من؟ وإن سألت ماما سارة، ستقول بأنها أمي! لكن حديث ماما مريم صحيح، من المستحيل أن يرتفع صوتهما هكذا، إلا والسبب صحيح وأكيد.

شيء ما كان يراقبني، أشعر بيد أحدهم تلمس شعري. ماما سارة؟ هل خرجت من قبرها كي تُطمئِنَ قلبي؟ إنها هنا بجانبي تراني وتبتسم لي.

- هند ؟ يالله نتريّق . الساعة الآن الحادية عشرة.
- إن شاء الله.

لم تكن ماما سارة، بل أمي الجديدة التي لم أستطع إلى الآن أن أناديها أمي. السيّدة عائشة. استيقظت، ذهبت لغسل وجهي وتبديل ملابسي. لحظة! ماذا ألبس؟ هناك كنت أفطر ببجامتي، هل هذا خطأ هنا؟ ماما سارة كانت تقول دائماً بأنه من غير اللائق أن أبقى ببجامتي وملابس النوم في منزلٍ غير منزلي.

ارتديت ثوباً فضفاضاً، خرجت وأنا أختبئ فيه، كأنني أُغرِقُ نفسي بين طيّاته. في كل ثانية، أُدخل يدي داخل الكم. جلستُ معهم على الأرض كي آكل. كانوا يتحدّثون ويحاولون إشراكي في الحديث معهم. أخجل، كنت أخجل، لا أعرف كيف أبدأ ولا أعرف كيفيّة الحديث مع عائلة جديدة أصبحت عائلتي حديثاً. أو يوم أمس فقط.

تحدّثوا عن سفراتهم وكيف يقضون أيامهم، عن أفراد عائلتهم. حاولت أن أحفظ أسماءهم، لكنني لم أستطع، فعائلتهم كبيرة جدّاً.

انتقلت إلى أبوظبي مع عائلتي الجديدة، أبوظبي أكبر من رأس الخيمة و بها من البنايات والحدائق الكثير. غير أن رأس الخيمة منطقة جبليّة ولا تحتوي إلا على حديقة واحدة. قرّروا أخذي معهم اليوم لأتسكّع، كما يقولون، في شوارع العاصمة. لأتعرّف على مدينتي التي سأعيش فيها بقيّة عمري. أو قبل أن تأخذني عائلة أخرى. فالحياة هنا فوضوية!

- كم قلت لي عمرك الآن، يا ابنتي ؟
- عشرة أعوام عمّ.. عمّي، عشرة.
- تستطيعين مناداتي أبي، يا هند.
- لم أعتد بعد. يجب أن أعتاد الأمر.

ذهبت إلى غرفتي لأبدّل ملابسي. ارتديتُ تنّورة سماويّة من الشيفون، وقميصاً زهرياً فاتحاً جدّاً. شعري كان قصيراً ناعماً يصل إلى كتفي، كميت اللون.

ركبت السيّارة. كنت وراء السيّدة عائشة. ليس في الوسط،كما كنت أجلس دائماً مع أمي سارة وأبي أحمد. كانت المناظر تمر بسرعة من أمامي، جميع الألوان أراها، البني، الأخضر، الأزرق، الأبيض، الأسود، الأحمر. السيارات من كل الأنواع والألوان. حتّى أنني في

بعض الأحيان، كنت ألتفت إلى الخلف حتى أرى ما سبقني، من حدائق وبنايات.

البحر! تذكّرت حياتي مع عيسى. الطين الذي كنا نترامى به، غضب ماما سارة منّي عندما كنت أرميه على عينيه. وكيف كان يبكي ويركض لبابا أحمد يشكوه منّي.

- ماما سارة، البحر. دعونا نلعب في البحر . م.. ما.. آسفة.
- لا بأس حبيبتي، سنذهب إلى البحر، ونجلس قليلاً.
- حسناً، شكراً.

أرخيت رأسي على طرف النافذة. انهمرت دموعي دون أن أشعر. أين عيسى الآن وأين ماما سارة وأين هم جميعاً؟ أنا في زيارة لهذه العائلة لأيامٍ قليلة، فقط حتى تقتنع ماما مريم بوجودي بينهم. ثم سأعود. خرجت الدموع من عيني وهي تتدافع واحدة تلو الأخرى، وكأنها تتسابق من يخرج أوّلاً؟ غبيّة، غبيّة يا هند. أنتِ لستِ مع أمك سارة. امسحي دموعك. فتاة غبيّة مشاغبة. الدموع للأطفال يا فالحة. سيشاهدونكِ الآن ويضحكون. امسحيها يالله.

مضى اليوم بطيئاً، لم أكن أتحدّث كثيراً، إجاباتي كانت نعم، لا، شكراً. لا أريد.

عدنا إلى المنزل.

الساعة ما بين السابعة والثامنة. ذهبوا لمشاهدة التلفاز، ودخلت أنا غرفتي.

ركعتُ على ركبتي ويداي على حد السرير، واضعةً رأسي عليهما. أنظر للحديقة الفارغة التي تقع خلفنا. أفكر في المجهول واللاشيء. فقط، أتأمل المنظر الفارغ. كأنه يشبهني. لا شيء مهماً في حياتي، بلا أخي عيسى وأمي وأبي.

دخلت السيّدة عائشة.

- هند، سندخل للنوم، اطرقي الباب إن احتجت شيئاً.
- حسناً، شكراً. تصبحين على خير.
- وأنتِ من أهل الخير، يا صغيرتي.

ابتسمت لها ابتسامة باهتة شعرت هي ببرودتها. جلست على الكرسي أمام شاشة اللابتوب، أشاهد توم وجيري على اليوتيوب. انتظرت نصف ساعة بالضبط، حتى تسللت إلى المطبخ. أنا جائعة. جائعة. لم أذق أي شيء. ستنفجر معدتي من الجوع. تسللت إلى المطبخ وأنا أحدّث نفسي بصوت عالٍ. غبيّة، كالعادة غبيّة، ماذا أقول أيضاً؟ ما الفائدة الآن من رفضكِ وإصراركِ على أن معدتك ممتلئة؟ تقولين بأنها ممتلئة هه؟ نعم نعم، أكلت الكثير من الكعك والبسكويت قبل أن أخرج. لا أريد شيئاً، شكراً لكم. والآن تشكين من الأصوات المزعجة التي تصدرها معدتك! ما الذي سيحدث إن أكلتِ معهم، ما هذا الخجل؟ والمشكلة أن عشاءهم كان من ماكدونلز! أحد مطاعمي المفضّلة. لا أصدّق أنني قلت لهم شكراً.

وضعت الجبن في الخبز وفتحت المايكرويف. وكيف يعمل

هذا أيضاً اليوم؟ أفف. غبيّة وإلى الأبد غبيّة. وما أن وضعت الخبزة في فمي، حتى وقف قلبي واختبأت بعفويّة أسفل الطاولة.

- هند؟ هذه أنتِ!

يمكنكم سماع قرع الطبول في قلبي. يا إلهي! قلت بأنني لستُ جائعة. والآن، أنا هنا كالفأر أتخشّشُ بين الصحون.

- نـ.. نعم، نعم أنا الفأر، أقصد هند، هند.

- العافية على قلبك ومعدتكِ يا ابنتي. أغلقي المطبخ جيّداً بعدما تخرجين.

- إن شاء الله، شكراً لكَ عمّي.

- تصبحين على خير.

- وأنتَ من أهل الخير عمّي. ليلة سعيدة.

وضعتُ يدي على قلبي، حمداً لله لم يضحك ولم يقل شيئاً. يجب أن أتسلّل بالطعام إلى غرفتي، مرّة أخرى. كيس خبز، كوب من الجبن، القليل من البسكويت، أعني الكثير من البسكويت.

رجعت إلى الغرفة. استلقيتُ على السرير وعيناي للأعلى. أسدلتهما قليلاً، أردت النوم. وأن أنسى كل ما حدث اليوم من غباء. لكنني لم أستطع. واستسلمتُ للذكريات مجدّداً.

أصبحت معاملة ماما سارة وأبي أحمد أكثر حناناً ودفئاً معي، لماذا؟ لأنني علمت بالأمر ولا يريدانني أن أحزن، لا يريدانني أن أشعر لوهلةٍ فقط بأنني لست ابنتهما، فكل ما قيل كان هراء. كُنّا نخرج كثيراً

إلى البحر والبر. كانا يسعدانا بكل ما يستطيعان. وأنني بكل ما أوتيت من سعادة، حاولت، إلا أنني لم أستطع نسيان الفراغ الذي سكن قلبي. الفراغ الذي تركته جدّتي مريم يبني عشّه فيّ حتّى لا يخرج. لا أنساه أبداً.

كان أبي أحمد كثير السفر، أحياناً للعمل وأحياناً أخرى للاسترخاء ونسيان تعب عمله. كانت أمي سارة تصر على تعلّم القيادة، حتى تخرج بنا إن شعرنا بالملل، أو حتى تذهب إلى الجمعيّة لأخذ ما نحتاج إليه، وما تحتاجه المدارس من طلبات كثيرة، أو على أن نحصل على سائق دائم، على الأقل. لكنه كان يرفض لأنها امرأة، وعيسى لم يكبر بعد حتى يتحمّل المسؤوليّة. ثم وافق على تعليمها القيادة. فرحتُ أنا أكثر من فرحها، لأنها تحب التسوّق والخروج كثيراً، ولأنها لن تتركنا وحدنا. سنتسوّق دائماً ونلعب ونلهو ونذهب إلى كل مكان.

بدأ تعليمها بنفسه، قبل أن تتدرّب في مدارس التعليم. كانا يخرجان ليلاً إلى منطقة المعيريض، حيث الشارع والمكان فارغان جدّاً، إلا من صوت الموج والنسيم البارد. كانت تقود السيّارة ببطء، وكثيراً ما كانت تدوس على الفرامل فتتوقف فجأة، وما أكثر ما تذمّر أبي أحمد منها.

- أصلاً سواقة النساء سيئة، لا أعرف كيف وافقت على هذا الأمر. قبل كل مطبّ، تضغطين على «البريك» وتصدمين جبهتي بزجاج النافذة.

- آسفة، والله آسفة، سأتعلم أحمد.
- حسناً، سنرى.

كانا هكذا كل يومين. يذهبان للتدرّب أمام البحر، وقبل أن يرجعا إلى المنزل، يحضران لنا الطعام من ماكدونلز.

يوم الأربعاء، في الرابع والعشرين من أبريل، الساعة العاشرة مساء. أتت خالتي فاطمة لتأخذنا أنا وعيسى من المنزل إلى منزلها. اتصلت بأمي كثيراً حتى أخبرها، لكنها لم تجب. ذهبنا بالبيجامة ودميتي التي كنت ألعب بها قبل أن تأتي هي.

كانوا قلقين جدّاً، حاولوا إخفاء ذلك، لكنّنا لاحظنا قلقهم وخوفهم. دخلنا المنزل وصرفونا إلى الغرفة التي سننام فيها، وكانت ابنة خالتي علياء معنا أيضاً. كانت تنظر إلى الهاتف كثيراً، وكلّما رن أو سمعت صوتاً، نظرت نحوه بخوف. كانت يدي تمسك يد أخي عيسى، إلى أن غفونا. غطّتنا وخرجت.

استيقظنا صباحاً على صوت خالتي فاطمة وهي تنادي الخادمة لتغيّر ملابسنا ونذهب جميعاً لمنزل جدّتي مريم. رفضت في البداية، فهي تكرهني ولا أريد أن أزعجها مجدّداً. غيّرنا ملابسنا وشربنا كوب حليب، ثم خرجنا إلى منزل جدّتي الذي لا يبعد عن منزل خالتي إلا ربع ساعة.

كان المكان مزدحماً، وكنت أسمع مع كل خطوة، نحيب جدّتي. دموع خالتي التي كانت تحاول إخفاءها خلف حجابها. وعلياء التي

كانت تنظر إلينا بشفقة. دخلنا المنزل. وكأنني دخلت لأعيش بين خطوط حمار الوحش. لا شيء سوى اللون الأبيض والأسود. كانوا يدخلون إلى المجلس هادئين، ويخرجون والبكاء نفسه لا يتحمّل نحيبهم وصراخهم. أحدهم يخرج مغشيّاً عليه. وصوت نداءاتهم للخادمة حتّى تحضر الماء للنساء المغشيّ عليهم. أردت أن أدخل، أن أرى صاحب القناع الذي يفعل بهم هكذا، أريد أن أرى أي حيوان مفترس هو في الداخل. أخبرت علياء بأنني أريد الدخول. لكنها رفضت. لكن بعد قليل.، أتت خالتي فاطمة لتحدّثنا أنا وعيسى.

- عيسى حبيبي، أنتَ رجل الآن، وأنتِ يا هند فتاة كبيرة. سأخبركما بقصّة قصيرة. وأريد أن أعرف ردّة فعلكما وماذا ستفعلان لو كنتما في مكانهم. لكن، دعونا نذهب إلى الغرفة في الأعلى. سنتحدّث بعيداً عنهم.

- لكن من هؤلاء؟ ولماذا الجميع يبكي !

- سأخبركِ حبيبتي، لكن تعالا معي.

دخلنا الغرفة وأغلقت خالتي الباب جيّداً، ربّما كي لا يسمعنا أحد، أو كي لا نسمع نحن أحداً. وضعت الوسائد على الأرض، وجلسنا على شكل حلقة أنا وعيسى وهيَ.

كان يا مكان في قديم الزمان. كانت هناك امرأة جميلة جدّاً جدّاً، والله جميل يحبّ الجمال. أنجبت طفلين جميلين يحملان ملامحها. كانت تحبّهما وتفعل كل شيء من أجلهما. حتّى أنها لم تعمل، فقط

كي تقضي أوقاتها معهما ومع زوجها الذي يحبّها كثيراً. كانت حياتهم جميلة، وكأنها رسمةٌ مرسومة بدقّة، بكل الألوان السعيدة، ولم يشبها أي حزن قط. خرجت هذه الأم مرّة ليلاً. والليل يا هند وعيسى موحش. ذهبت كي تتعلّم شيّئاً من أجل صغارها. لكن الناس الطيّبين، دائماً يأخذهم الله كي يعطيهم حياةً أجمل. فكما قلت لكما، الله جميل يحبّ الجمال. هيَ جميلة وتستحق حياةً أجمل. توقّف قلبها فجأة. وعندما يتوقّف القلب، فذلك يعني بأن الله قد أخذ روحها كي تعيش معه بسلام. كي تكون سعيدة بقربه. وبعد مدّة من الزمن، عندما يشتاق إليها زوجها وأطفالها، سيأخذهم الله كذلك بقربه، كي تجتمع عائلتهم من جديد. ما رأيكما؟ ماذا تفعلان لو كنتما مكان طفليها؟

أجاب عيسى ولم ينتظرني حتى أفهم ما تقول، أو أفكّر حتّى لو أنني كنت مكانهما.

- لا أريد أن أشتاق إليها، أريدها دائماً معي. لهذا لن أتخيّل نفسي مكان أحد.
- لا يا عيسى، فكّر معي حتى أذهب لأصبّر قلوبهم وأقول لهم إن أبناء أختي سيفعلون كذا وكذا.

أجبت أنا، تاركةً أخي يفكّر قليلاً.

- سأقول لهم بأن الله جميل يحبّ الجمال، ووالدتهما جميلة، لهذا أخذها الله. وسنحسب، كل يوم سنحسب كم تبقى لهما حتى يذهبا إليها. بالمناسبة، كم سينتظر الله حتى يأخذهما؟

ابتسمت خالتي فاطمة ابتسامة هادئة. ثم أردفت:

- لا نعلم يا حبيبتي، لكن دعينا نقول خمس سنوات، لأنهما بعد هذه السنوات الطويلة سينسيان مسألة الحساب. وسيتأقلمان مع الوضع. سيتفهمان الأمر.

- حسناً سأقول لهما، اليوم هو اليوم الأول، وغداً سيكون الثاني، وهكذا إلى أن تكملا خمس سنوات، وسيأخذكما الله معها. لكن والدكما معكما، وسيسعدكما، كما أسعدتكما أمكما دائماً. وكل من يذهب إلى الله فهو في حفظه. لأن ماما سارة دائماً تقول، احفظي الله يحفظُكِ. سيحفظها بالتأكيد لأن الله يحبّ من يسعد أبناءه ويفعل كل ما يسعدهم. وأنتِ قلت بأنها لم تذهب لتعمل، فقط لتسعدهم. الله يحبّها، لهذا أخذها لقربه.

- ما شاء الله. أنتِ ذكيّة جدّاً وكلامك سيسعدهما بالتأكيد.

أضاف أخي عيسى:

- نعم، سيشتري لهما والدهما الهدايا والألعاب، وسيحسبان الأيام إلى أن يذهبا إليها. لكنّهما ليلاً، يستطيعان أن يخرجا إلى الخارج ويجلسان على الأرض، يشاهدان النجوم ويتأملانها ويتخيّلان بأنهما يستطيعان الطيران. دعيهما يتخيّلان بأنهما طارا إليها. تحدّثا إليها. وأنها تسمعهما. لكنها ستعود حتماً يوماً ما. وإن سقطت نجمة من السماء، فذلك يعني بأنه والدتهما سمعتهما وابتسمت لهما، وهذه إشارة بأنها ستعود يوماً.

نزلت دمعة على خد خالتي فاطمة فقالت:

- أخذتما طبع والدتكما سارة. حفظكما الله لي ولوالدكما يا جميلين. حسناً. نحن نحبّ الله صحيح ؟

- نعم أكيد.

- حسناً، عندما يفعل الله شيئاً كهذا، فهو يفعل لحكمة ما أرادها. حكمة يعني أنه أرادنا أن نفهم شيئاً من هذا الشيء، أو كي يختبر صبرنا. ولأننا نحب الله، سنصبر ونتحمّل. ونحسب الأيام ونتحدّث إلى النجوم. إلى أن يأخذنا الله بقرب ماما سارة. اتفقنا؟

- ماما سارة؟

- نعم يا عيسى، ماما سارة ذهبت إلى الله. ونحن سنصبر ونتحدّث إلى النجوم، تماماً كما قلت.

- غيّرت رأيي، لا أعرف الحساب أصلاً، لن أحسب، وخمس سنوات كثيرة جدّاً، وأنا لم أتعلّم إلى الآن العدّ إلى الرقم ... مم، لا أعلم، المهم أنه كثيرٌ جدّاً، ربما مليون يوم أو مليونان.وأنا لا أعرف العد، خالتي فاطمة!

- أنا سأعدّ معكِ، حبيبتي، إلى أن نصل للعدد 365، فنكون قد أكملنا العام، ثم نعاود البدء مجدّداً، من الرقم واحد.

- وأنا لا أريد أن أتحدّث إلى النجوم، أصلاً الأمر سخيف. من يتحدّث إلى جماد!

- لكن يا هند وعيسى، الأمر حدث وانتهى، وماما سارة ذهبت إلى الله. والله يريد اختبار صبرنا، سنأخذ الأجر الكثير الذي يدخلنا إلى الجنّة إن صبرنا. سنصبر يا أحبائي، سنصبر.

بدأ عيسى بالبكاء لأنه فهم بأنه لن يرى أمي مجدداً، أما أنا، فارتميت في حضنها ولم أتحدّث ولم أبك ولم أبتسم حتّى. فقط كنتُ صامتة. وعيناي مفتوحتان إلى أن احترقتا لأنني لم أرمش!

بعد خمس دقائق، قالت:

- الآن، نحن بالعزاء، والعزاء يستمر ثلاثة أيام متتالية. أنت يا عيسى ستجلس مع الرجال، وإن قال لكَ أحدهم «أحسنَ الله عزاءك"، أجبهُ «الدوام والبقاء لله". وأنتِ كذلك يا هند، لكنّك ستكونين معي وبجانبي. الآن سنذهب لنرى والدتكما للمرّة الأخيرة، في المجلس، قبل أن يتم دفنها. ثم سنبدأ باستقبال الناس للعزاء.

إذاً، لم يكن وحشاً ولا حيواناً مفترساً من كانوا يدخلون لرؤيته، ويخرجون والدموع تملأ محاجرهم. ذهبنا إلى المجلس وهي تمسك بأيدينا كل على حدة. هنا عيسى، والجانب الآخر أنا، وكأننا نتحدّ لندخل المعركة. أول ما خرجنا من الغرفة ونزلنا باتجاه المجلس، كنت أرى النساء مُلتفات حول جدّتي. تمنّيت لو أنني أستطيع إخبارها بأنها ستعود، وأن كل هذا ما هو إلا اختبار صفّارة إنذار قبل الموت. سنموت جميعاً، لكن ماما سارة تريدنا أن نعتاد الأمر من الآن، حتى لا نحزن لاحقاً. أمام الباب، أخذنا نفساً عميقاً، ثم دخلنا.

الرائحة كانت قويّة ومُركّزة، أما أمي؟ فقد كانت مغطّاة بالبياض، كبياض قلبها. أزاحت خالتي فاطمة الكفن عن وجهها. كانت مبتسمة. الابتسامة التي كانت تمسح بها رأسنا، وتُطبطب بها همومنا، وتحنو بها علينا إن أخطأنا وعاقبنا بابا أحمد. لكنها اليوم، أعرض قليلاً. وأجمل. وأنقى وأصفى. وللأسف، سنراها للمرّة الأخيرة.

بدا عيسى هادئاً، لكنه سرعان ما استأنف البكاء.

- عيسى! أنت صدّقت كلام خالتي فاطمة؟ اسمع عيسى، هذه لعبة ماما سارة كي تختبر حبّنا، كما يختبر الله صبرنا. لكننا سنصمت، كي لا تعيد فعلتها. وسنفعل ما قلناه لخالتي. سنعدّ النجوم ونتحدّث إليها ونحسب الأيام مدّة خمس سنوات. إنه الدخان الذي يسبق الموت. فقط، فبركات أصلاً. لا تبكِ يا حبيبي، لا تبكِ.

و ما أن سمعت خالتي ما قلته، حتى أجهشت بالبكاء. لا أقصد! لم أكن أقصد أن أقول بأنكِ كاذبة. لكنّني قلتُ ذلك حتى لا يبكي أخي. لا أريد أن أرى دموعه. أريده أن يفعل ما قاله بالأعلى، وأن لا يتراجع في كلامه. نظراتي قالت لها كل هذا. لم أتحدّث ولم أقل شيئاً.

كانت تقبّلها، ثم رفعت يديها تدعو، ولم أسمع ما قالت، لكنّها ختمته بآمين، فقلت معها آمين. صعد عيسى إلى السرير الموضوع في منتصف المجلس.

- ماما، سأنام معكِ اليوم. لن أقول لهم بأنكِ تختبريننا،

صدّقيني، لكن دعيني أنام معكِ، سنكذب عليهم، لكن لا تذهبي.

سحبته خالتي فاطمة، قالت له بأن هذا يكفي. أخرجته من الغرفة. والآن أنا وحدي هنا، مع أمي. أنا وحدي معكِ ماما. هل ستستيقظين من نومك؟ هل ستفتحين عيناً واحدة وتخرجي لسانكِ، لتخبريني بأننا في إبريل، وهذه كذبة إبريل ؟ ماما، لن أُكمل خمسة أعوام وسآتي إليكِ.

ضربتُ نفسي على جبهتي ثم أكملت.

ماما، ابتسامتكِ هذه لن أنساها وعندما أكبر، سأبتسم مثلكِ تماماً. سأتحدّث عنكِ مع عيسى ومع صديقاتي اللواتي سأتعرف عليهن قريباً. أيضاً مع بابا أحمد. لا أعرف أين هو الآن. لكنّني سأجده وأتحدّث معهُ عنكِ. أحبّكِ ماما، ولن أنام، إلا بعد أن أتحدّث إليكِ كل ليلة. أعدُكِ بذلك.

طبعتُ قبلة على جبينها. لمستُ وجنتيها الناعمتين للمرّة الأخيرة. أمسكت يدها، أدخلتُ أصابعي بين أصابعها، ورصصتُ عليهم بقوّة. أغمضت عيني. دعوتُ الله أن يأخذني إليها، رسمتُ ابتسامتها على وجهي وخرجت.

لن أتأخر ماما، لن أتأخّر.

مرّت أيام العزاء بطيئة جدّاً. نظرات ماما مريم تخنقني. كلّما تراني، تطلب منهم أن يبعدوني عن المكان الذي تجلس فيه. لبستُ العباءة لأول مرّة، ولمدّة ثلاثة أيّام متتالية. لأنها أمي، إذاً يجب علي أن أفعل،

كما تفعل أختها فاطمة. تلبس العباءة السوداء. وتستقبل النساء وتسلّم عليهن. لكن لا تبكي أبداً، لا تبكي، بل تتماسك، وما أن تدخل غرفتها، حتّى تسمح لدموعها بالخروج. إلى أن تنام وعيناها مغرورقتان بالحزن على أمي. أما أنا، فكنت أسلّم عليهن. أجيبهن كما قالت لي خالتي: البقاء والدوام لله. وما أن يرحلن جميعاً، أذهب لأنام بجانب أخي عيسى. أنا أمّه الآن. أحدّثه، كما كانت أمي لتحدّثه في حزنه وضيقه. وأتماسك. ولا أبكي. وعدتها بأنني سأذهب إليها قبل أن نكمل خمس سنوات. وسأجلس معها. ثم بعد خمس سنواتٍ أخرى، يرافقنا عيسى، فبابا أحمد. سنبقيه الأخير حتى يتحمّل مسؤوليّتنا ويؤمّن حاجياتنا. أو أن نرحل جميعاً معاً.

انتهت أيام العزاء ونحن نسكن في بيت جدّتي لثلاثة أيّام. ثم بعد ذلك، أخبرتنا خالتي فاطمة أن أبي يريد رؤيتنا وهو في المستشفى، بسبب إصابته عندما كان في السيّارة مع أمي. والحادث لم يكن قويّاً جدّاً، لذا استطاع أن يتحكّم بالمقود. لكنها ماتت، ذهبت. فقد توقّف قلبها، قبل أن يقع الحادث. وأبي؟ أبي الحنون الذي كان يفضّل قضاء وقته معنا ومع أمي، على قضائه مع أصدقائه،أصبح شاحباً حزيناً على رحيل أمي. حتّى أن شعر ذقنه أصبح غير مهذّب، وشعر رأسه كثيفاً، لكنّه ناعم. ملابسه أصبحت واسعة لأنه لا يأكل ودائم السرحان. حتّى أنه أحياناً، ونحن نشاهد التلفاز، ينادي فجأة: سارة، أريد كوباً من الشاي. تلتقي نظراتنا، أنا وعيسى، بصمت. ثم يتذكّر بأنها لم تعد معنا

هنا، فيذهب لصنع الشاي بنفسه، ويضع بسكويتاً على الصحن الصغير الذي يحمل عليه كوبه، تماماً كما كانت تفعل أمي. كل ما نفعله الآن، نقلّد به أمي، لعلّها تعود حين ترانا كم أصبحنا هادئين.

4

عيسى، أغمض عينك، وتخيّل معي.

السواد الذي تراه الآن، التشتّت الذي تشعُر به في هذه اللحظة، الأحلام الضائعة والذكريات المُهمَلة، الفراغ الذي أصبح واضحاً في قلبك، الرحيل المؤلم والحديث المتناقض الذي يتّكئ على سُلّم أفكارك... أنا أشعُرُ بذلك حرفياً. وكأن قوّتي تُنتشل منّي وتستبدَلُ بالضعف. خائفة جدّاً، خائفة أنا من حياتي المتدهورَة، والشتائم التي تتآكل في داخلي، وأنا أقف كالبلهاء، بلا جواب أو ردّ فعل. خائفةٌ أنا من شعور الفقد الذي لا يتركُكَ ويعود لزيارتكَ كل ليلَة، من رائحة العطر الذي سيرسم ذكرياتها أمامي في كلّ مرّة تستنشق زخاته أنفي. أخاف أن أكون فُتات مرآة مكسورَة لا يُعاد تركيبها، ألا أترُكَ في حياة أحدهم أيّ أثر، وألا يهتمّ أحد لمشاعري أو حتّى لكسري. أخاف أن أفقدكَ أيضاً، أن لا يكون لوجودنا سوياً طعم، وأن أظل دائماً أخاف!

وأبي؟

شاحبٌ، رأسه امتلأ بالشيب، تخيّل ! أبي أصبح عجوزاً بعد وفاة أمي ! أفتقدُ حديثه الممضوغ بالسعادة التي أذاقنا إياها، إلى أن

شبعنا ووصلنا حدّ الطفح. أفتقد الجلوس معه لمشاهدة مباراة فريقه المُفضّل، فينهار ويغضب فور خسارته أو خروجه من الدوري، ونُمنع من الخروج عقاباً للفريق قبل أن يكون لنا، فمزاجه لا يسمح أكيد. قلبه الآن في فصل الخريف، تتساقط منه كل ليلة بذرَة شوق ودمعة فراق. لا نراه إلا مرّتين في اليوم، ومعظم وقته يقضيه بين ثنايا مكتبه. تنهّدت، مرّرتُ يدي على عين عيسى بنعومة حتّى يفتحها. لا أريد أن نبقى هكذا عيسى، أريد لحياتنا الحياة التي ماتت في عيني منذ أن دُفِنت أمي، لم نعد نسعد أو نندمج مع العالم الخارجي. عيسى، سنجعل والدي يخترق الغشاء الذي يغطّي قلبه من حزنٍ وفراق، سنفعل ذلك سويّاً كل ليلة، وسنفرح لأننا وجدنا طريقة للتحدّث مع أمي. أرجوك عيسى، كفى حزناً، أريد أن نكون بخير.

ابتسم عيسى. أراد حقّاً أن ينتهي مفعول ألم الفراق. صعدنا إلى غرفة أبي، كان متّكئَاً على السرير، مسنداً رأسه إلى الجدار، يحدّق في السقف الأبيض والمروحة التي تدور بلا هدف، مُمسكاً بنظارته الملقاة على بطنه. اقتحمنا رُدهته بهدوء، وحاصرناه من الجانبين. حدّقنا بوجهه وابتسمنا كأبلهين بابتسامةٍ عريضةٍ جدّاً، ولم ننبس بحرف ولا بهمس.

- ماذا الآن ؟

قالها بملل وهو يرفَع حاجباً واحداً. لم نقل شيئاً، بل حاولنا أن نبتسم أكثر. أحب عندما يكمل عيسى ما أفعل، حتّى و إن كان لا يعلم ما هو المغزى من ذلك، فهو يقلّدني بالضبط.

- نعم؟ ما الأمر؟

خفضت رأسي وقد تلاشت مني الابتسامة. بقي عيسى على ابتسامته، وما إن رآني، تدارك الأمر وفعل كما فعلت. وبنظرة حزينةٍ، عقد حاجبيه وأرجع رأسه إلى الخلف فجأة.

- اخرج، اخرج أنت وأختك. لستُ في مزاجٍ جيّد حتّى أتحمّل ظرافتكما السخيفة.

ابتسمتُ وقرّبتُ رأسي من عينيه وأنا أحرّك بؤبؤ عيني بعفويّة. ضحك فجأة، فضحكنا خلفه. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أفعل بها هذا الشيء، لكنها أصبحت عادة لدينا أنا وعيسى، كلّما ضاق أحدنا.

- مجانين.

وضع يديه حولنا وضمّنا إليه، قبّل رأسينا وسكت قليلاً، ثم قال:

- ماذا تريدان؟

- لا شيء فقط نريد أن نضحك.

طبطب علينا وقال:

- أمر عسكري، الآن غيّرا ملابسكما ولنخرج. لديكما سبع دقائق فقط. الآن!

خرجنا مسرعين وكأنّه حقاً أمر عسكري. ذهبنا وغيّرنا ملابسنا. تشاجرنا كالعادة على من سيجلس في الأمام بجانب أبي. وبما أنني الفتاة الوحيدة، رمياني في الخلف وسيطرا على الوضع.

في الطريق، قال أبي إن جدتي تريدني أن أزورها غداً. أكلني

الحماس. الآن هيَ من تريدني، وهيَ من أقامت وليمة على شرفي! سيكون يوماً جميلاً. متأكّدة.

طبعتُ قبلةً على يدي وأرسلتها للفضاء، إلى أمي.

بعد أن عُدنا إلى المنزل، ركضتُ إلى غرفتي والابتسامة لا تفارق وجهي. اخترتُ لي أجمل الثياب التي سألبسها غداً، وأخرجت الحذاء الذي يُناسبها ونفضتُ الغبار عنه. كأنني أتأهّب للعيد.

في المجلس، ولأول مرّة، جمعت جدّتي مريم النساء مع الرجال. قالت: أعلم بأنكم متعجبون من اجتماعنا هذا، ولأول مرّة يوم السبت، بدلاً من الجمعة. أريد أن أشارككم القرار الذي اتخذته منذ يومين. في هذه اللحظة بالتحديد، ابتسمتُ ابتسامة كبيرة، لأنها أصرّت على حضوري مع أبي وأخي، ولأنها تريد مشاركتنا قرارها المهم. تابعت جدتي: لن أطيل وألقي عليكم خطاباً لا يطعم ولا يُغني من جوع. لكن ببساطة، القرار هذا يخص هند. لقد رحلت سارة، فلترحل معها هند إذاً.

ونقطة. انتهى الحديث هنا، خرجت ونحنُ نتبعها بأنظارنا! ماذا قالت؟ سترحل هند.

أدار عيسى رأسه نحوي، رأى علامات التعجّب المرسومة على جبيني، أصبح المكان مكتظّاً بالأصوات، لم أكن أسمع إلا دَوي حديثها الذي انفجر كالقنبلة بوجهي. كان الحديث يتردّد في أذني، «فلترحل معها هند إذاً». متى سُمحَ لكِ بأن تتخذي هكذا قرار بدلاً عن أبي!

خرجنا من المنزل مذهولين. أرسلت جدّتي رسالة نصيّة لأبي تقول فيها ألا مجال للحديث وبأنني يجب أن أذهب غداً صباحاً. هل سيوافق أبي؟ هل سأذهب حقّاً بهذه السهولة؟

وفقاً للخطوط الجويّة، عند الإقلاع تحديداً، يهبط قلبك إلى الأسفل في محاولة منه لتخفيف الضغط والكم الهائل من مشاعر الخوف والرهبة التي تسكنك وقتها. يطير قلبك فتتأمل الغيم والصفاء، البياض والنقاء. الدقّة حول الغيم والفقاعات المتجمّعة مع بعضها البعض تشكّل مجموعة هندسيّة من الدوائر المتداخلة ، لون السماء الأزرق يميل نوعاً ما في بعض الأماكن إلى الوردي والبرتقالي. تمنّيت لو أنني أستطيع إخراج يدي من النافذة لألمس الغيم، أتذوّقه.

هبطت الطائرة ولم أشعر بمرور الوقت. نزلنا في مطار جدّة، واستأجرنا سيارة لتأخذنا للخُبَر، المدينة التي أحبها من فرط حبّي لسكّانها، وبالتحديد لعائلة المعيبد.

كان الفندق يطل على الكورنيش والمحلّات التجاريّة، ويحتوي على برك سباحة كبيرة. استلمنا الغرفة وأخذ كل منّا يختار سريره. اخترت ذاك المجاور للنافذة لجمال المنظر المطل عليه، وروعة غروب الشمس وشروقها أمام البحر.

غطّ عيسى في نوم عميق بعدما غرق في سريره بحذائه وملابسه، أما أنا فقد أكلني التفكير بما سيفعله أبي بعد انتهاء هذه الرحلة.

- بابا ؟
- اشش، لا نريد أن نتحدث في أي أمر غير سعادتنا. سنلتقي مساء بصديقٍ لي ستتعرفين إلى بناته.

وبما أنهم ناموا جميعاً، فسأنام أنا أيضاً.

أمضينا أسبوعاً حافلاً بالمجمّعات ورحلات البر والبحر، وفي يوم الجمعة، عدنا إلى رأس الخيمة.

أول وصولنا، فتح أبي هاتفه بعد أن كان قد أطفأه أسبوعاً كاملاً، فاندفعت المكالمات والرسائل دفعةً واحدة. كان أغلبها من جدّتي مريم. دخلنا المنزل، وخرج هو إلى بيت جدّتي.

- عمّتي، أرجو أن يكون عقلك قد عاد إليكِ وتراجعتِ عن قرارك.
- أحمد. الهرب لا يفيدني، اعتبر هربك هذا طواف وداع لسبعة أيام. غداً يا أحمد سآتي لآخذها معي إن كنت لا تستطيع. وإن لم تضع لها ملابسها في الحقائب. سنرسلها لاحقاً.
- لكن عمّتي. هي ابنتي !
- هي متبنّاة وليست ابنتك.
- لكن سارة أرضعتها !
- لكنها لم تنجبها.

صمت أبي، لا يريد أن يتجادل معها أكثر، فهي امرأة كبيرة ولا جدوى من الحديث معها. عاد إلى المنزل وهو يجرّ الخيبة معه.

توجّه إلى غرفتي حضنني في حضرة الدموع والأسى. لم ينطق بكلمة. علمت بأنه سيأخذني للدار. بكيت معه بصمت. حاولت أن أحبس دموعي، لكنها أبت إلا أن تخرج.

- وكيف سأراك؟ وعيسى؟ سألعب مع من، من سيكون معي؟ أبي أرجوك لنهرب مرّة أخرى ونعيش في مكان آخر، أرجوك لا أريد الابتعاد عنكم.
- لا أستطيع هند.
- أبي، أنا هند، أنا ابنتك! كيف توافق على أن تتخلى عنّي بعد عشرة أعوام؟ قل لي بأنه كابوس وأني سأبقى معك هنا وبقلبكَ سأعيش.

ونمت، ونامت آلامي معي. لا توقظوني ولا توقظوها، دعوها تنام في سلام.

عند الساعة السابعة والنصف صباحاً، محاولة أبي غير المجدية مع جدّتي مريم، أو عدوّتي مريم.

خرجت مع حقيبتي. عيسى لم يستيقظ بعد. لم أستطع توديعه. أعلم بأنني لن أراهم مجدّداً. ذهبت وقبّلت رأس أخي. عيسى، كُن سعيداً من أجلي. احتضنت أبي الذي ليس بيده شيء. وبصمت، حدث كل شيء. ركبت السيّارة مع الجدّة مريم. وصلنا للدار، حيث استقبلتنا السيّدة يمان عند الباب. عرفتُ أنها تحدّثت مع جدّتي مسبقاً لأنها كانت تنتظرني. دخلت العالم الذي خرجتُ منه إلى منزل ماما سارة. لم أكن أتخيّل يوماً أن أعود إليه. أبداً.

غادرت جدتي مريم، فتقدمت السيدة يمان وأمسكت يدي. سحبت قبضتي من راحة يدها ووقعت عند رجلها.

- أرجوكِ، اتصلي بها، لا أريد العيش هنا معكم. أنا لدي أم وأب صدّقيني. لستُ مثلهم.
- هند، اهدئي، تعالي معي وسنتحدّث بالداخل. سأتصل بها لاحقاً.

لم يكن قلبها رقيقاً كي تحزن على حزني، بل أدخلتني معها بعدما مسحت دموعي وأبعدتُ يدها عنّي.

- اليوم السبت، لهذا ترين الأطفال يلعبون. ليس لديهم دراسة اليوم. ستكونين معهم وتندمجين في حياتهم. تعالي لأريكِ غرفتكِ.

تبعتها إلى الغرفة التي توقّعت أن أكون فيها وحدي على الأقل، وأرعى داخلها خصوصيّتي، لكنّني تفاجأت بعدد الأسرّة الموجودة فيها.

- ستنامين هنا مع أخواتكِ. أحذّركِ منهن.، حديثهن الليلي طويل جدّاً لأنهن يحببن الثرثرة.
- أين سريري؟
- هناك، في الزاوية. رتّبت لكِ الفراش، وكل ما تحتاجين إليه ستجدينه أمامكِ. دورة المياه هنا على اليمين. سأخبركِ بما نفعله كل يوم هنا.
- أريد أن أنام، لو سمحتِ!

خرجت، أغلقت الباب، وانغلقت أنا في عالمي الموحش هذا.

الساعة الثالثة، استيقظت من نومي. لم أجد عيسى ولا أبي. ولا أحد بجانبي. وجه جدتي مريم هو الذي أيقظني. رأيتني في الحلم قاسيَة، غَريبَة، أنانيّة، وسيّئة جداً.. رأيتني آخذها بعيداً، أنا وهي بِمفردنا، أدخلها في فوهة البركان وأستمتع وأنا أرى جِلدها يتمزّق، وأنا أسمعها تتأوّه وتئن من الألم. من قال بأنّني طفلَة بريئة؟ نعم، أنا أحمل كل هذا الحقد للتي تُسمّى جدّتي، وسأظلّ أكرهها كما كرهتني دائماً.

في صباح اليوم التالي، دخلت السيدة يمان.

- هل تسمحين لي بالتحدّث معكِ قليلاً ؟
- ماذا تريدين ؟
- سأحكي لكِ عن الحياة التي نعيشها هنا.
- الحياة هنا لا تهمني، سيأتي والدي غداً ليأخذني.
- حسناً، ألا تريدين التعرف إلى أخواتكِ؟ دعيني أقصّ عليك يوميّاتنا هنا. حسناً ؟

لن تذهب، لن يهدأ بالها إلى أن تفعل ما تريد. حسناً، هززت رأسي موافقة، فقالت:

نعيش هنا كالعائلة الواحدة. الجميع يلعب ويدرس ويأكل معاً. أنا ومساعدتي نوف، نستيقظ عند الساعة الخامسة صباحاً لنجهّز الفطور وموعده في الساعة السادسة. بعد الانتهاء من ترتيب الأسرّة وتناول الفطور، ينزلن جميعاً لانتظار الحافلة التي تقلّهن إلى المدرسة. يعدن

عند الواحدة والنصف، فنتحدّث عن يومهن وكيف قضينه. ثم يتناولن غداءهن ويرتحن قليلاً، إلى أن يحين الوقت الذي نسمّيه «الحلاوة». إنها الفترة المفضلة لديهن حيث يتناولن جميع أنواع السكاكر والحلويات، على ألا تزيد عن ثلاث قطع، أو نقوم بصنع كعكة مع الفتيات من عمركِ، يحببن الطبخ هنا كثيراً وستحبّينه مثلهن. بعد الانتهاء من حل الواجبات المدرسية.

الخروج مساء أمر لا مفرّ منه، فبعض واجباتهن لن ينتهي إلا إذا كانت هناك مكافأة مثل الرحلة المسائية. أما الأطفال الذين يصغرونكِ سنّاً، فهم لا يستطيعون النوم من دون قصّة.

- ليس الأطفال فقط من يحتاجون القصص، حتى الكبار.
- حاضر، سأحكي لكِ قصّة.
- ومن قال بأنني أريد منكِ قصّة، فقط أخبركِ.
- حسناً، سأذهب الآن لتحضير كعكة، ألا تودّين مشاركتنا؟
- طبعاً لا!

استدرتُ نحو النافذة، وجلست أفكر. متى سيأتي أبي؟ متى ستنتهي هذه القصّة؟ إلى متى سأتحمّل هذا البعد؟

قطع حبلَ أفكاري دخول أحد الفتيات، تركض وهي مسرورة، لتأخذ لباس الطبخ. يداها متسختان بألوان الطعام، ورديٌّ والقليل من الأزرق. أظن أنهن يصنعن كعكاً ملوّناً. لحقت بها لأراهن سعيدات مسرورات بما يفعلن. كل واحدة تعطي أختها المجال في أن تضع لوناً

معيّناً تحبّه، فتأتي الأخرى وتفعل الشيء نفسه. كنت أتلصّص عليهن من خلف الباب. كيف يسعدن بلا أمٍ أو أب ؟ هل يمكن ذلك ؟ لكنّني لا أريد، لا أستطيع. عدت إلى الغرفة بسرعة حتّى لا يراني أحد وأنا أراقبهن.

ثم اكتشفت أن هناك من يزورنا، في الدار، كل يوم أو يومين. تأتينا عائلات حاضنة تريد احتضان الأبناء، تختار بناء للسلوك وأحيانا لمعايير الجمال. وسرعان ما جاء دوري، فما أن رأوا عيني، حتّى وقعوا في حبّي. وبالتأكيد، كانت موافقتي مهمّة، فوافقت فوراً لأنني، عندما سأخرج، سأهرب إلى منزلي. لكن المشرفة يمان رفضت، فأنا جديدة هنا ونفسيتي لا تسمح لي بأن أذهب للعيش مع عائلة أخرى، وأنا لم أكمل أسبوعاً معهم. ثم إن عائلتي السابقة قد تعيد التفكير في الأمر، وتأتي لتأخذني.

إذاً سأبقى هنا. بدأت أذهب إلى المدرسة في حافلة الدار. ثم زارني أبي، وجعل يزورني يومياً، هو وعيسى ويقضيان الساعات معي، عند خروج أطفال الميتم إلى الرحلة المسائية.

اعتدت وجودهما معي حتى أصبح المبيت في الدار عادياً بالنسبة لي. أخبرني أبي أنه لم يستطع إقناع جدّتي مريم بالرجوع عن رأيها. ثم تدريجيّاً، قلّت زياراته لكثرة أشغاله. أدركت حينها أنه ما عاد يأتي كي أعتاد البعد وأمضي قُدُماً في حياتي، فتحتضنني عائلة أخرى. في النهاية، أنا لستُ من دمه، ولستُ ابنته، إنما أنا غريبٌ دخل حياته فجأة، وخرَج فجأة، ولن يَعود.

أصبح روتيني متكرّراً لا يتغيّر. أختلس النظر إلى من ينبغي أن أدعوهن أخواتي وهن يطبخن و يرمين أنفسهن بالطحين وألوان الطعام. يتشاجرن على القناة التي يودن مشاهدتها. يرمين أنفسهنّ بالوسائد قبل أن ينمن ليطلن السهر. أراهن وهن يتأهّبن للخروج. أخرج معهن أحياناً، وأحياناً أخرى أقضي هذا الوقت في مخاطبة أمي، أو أخرج مع عيسى وأبي إذا ما زاراني. أذهب إلى المدرسة بصمت، وأعود بصمت. الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر، هو مستواي الدراسي. بقي كما هو، جيّداً جدّاً. فقد وعدت أمّي بأن أبقى كما أنا، متفوّقة.

أكملت أسبوعين وأنا على هذه الحال. ثم قررت أن أقاوم الحزن الذي وقع كالصخرة على قلبي ولم يرد أن يرحل. أصبحت أشاركهن الطبخ، فقط بالمشاهدة. ثم تعرّفت إلى صديقةٍ تُدعى بشاير. وأخيراً عادت البسمة إلى عالمي، وإن كان الحنين المنافق يقتلني ليلاً، ثم ينساني نهاراً.

ثم جاءت عائلة جديدة للزيارة. شاهدت سجلّي الدراسي وكل ما يخصّني. اجتمعت بي في غرفة مغلقة، كقاضٍ يحقّق في جريمةٍ ما، قبل أن يصدر حكمه على المتّهم. ماذا أحب وماذا يحبّون؟ كيف يعيشون وكيف سأعيش أنا معهم كالملكة. و ما هو سبب جوعهم لطفلة، أو لفتاة في حياتهم فجأة، بعد كل هذه السنين!

المهم أنني أعجبتهم، كلؤلؤة من البحرين طوّقَت بالجمال والصفاء. سألوني إن كنت سأرضى مجدّداً بالعيش مع عائلة جديدة.

سكتّ قليلاً، فكّرتُ كثيراً. لقد بدأت أعتاد هذا المكان، وهذه العائلة المكوّنة من أطفال من غير أم وأب. العرض مغر، أوافق على الخروج من الدار، فأعيش حياة طبيعيّة كالتي عشتها مع عائلتي الأولى، لكن سينساني عيسى وأبي. لا بأس، لأن أماً جديدة ستمسح رأسي وأباً جديداً سيلبّي احتياجاتي. لا داعي للتفكير كثيراً، أنا موافقة، موافقة.

قمت بتجهيز أغراضي وحقيبتي. قمنا بصنع كعكة وداعيّة قبل أن أذهب، واحتفلنا بخروجي. ودّعتُ أخواتي كما أناديهن، ووددتُ لو استطعت أخذهن جميعاً معي.

ركبت السيّارة الجديدة المتوجّهة إلى أبوظبي. إذاً الأم عائشة والأب فارس احتضناني كي أصبح ابنتهما المنتظرة الجديدة، وليكونا عائلتي... الثالثة!

5

اتكأت على الشُرفَة المُطلّة على الساحة الخلفيّة، السواد المتناثر هنا وهناك، وجّهتُ نظري نحوَ السماء وبكيت. العالم هنا رماديٌ جدّاً، لا ألوان أستطيع تميّزها ولا حياة. العالم يموت، والله في عيني يموت. قوّتي تُستباح، لا أستطيع تمضية حياتي مثل بقية الأطفال، ليتني أستطيع اللعب كما يجب. لو أنني فقط في حضن أمّي الحقيقيّة الآن، لو أننا هربنا من عائلتها والمجتمع القذر. فُتحَ الباب. التفتُّ التفاتَة سريعة ورميتُ نفسي على الفراش.

- هند، العشاء جاهز. لنأكل سويّاً.

خرجت، تناولنا العشاء، التهمتُ الأكل كما لو أنني آكل لأوّل مرّة. الذكريات تحاصرني من كل جانب، فقط أريد نسيانها بالأكل، بالكتب، بالتأمل في أي شيء. المهم أن لا أتذكّر من تركني ورحل. عُدت لغرفتي. مددتُ رجلي محاولةً مني لأن أصل لحافة السرير، لكنّني قصيرَة القامَة. سحبتُ نفسي للأسفَل إلى أن لامست حـدوده. حضنتُ أعمدَته بأصابع قدمي. تمسّكتُ بها جيّداً. وجّهت رأسي إلى الأعلى. أستطيع رؤية الماضي كالدخان فوقي،

يتشكّل بشكل عصا جدّتي مريم، ببرقعها، ذلك الذي تلبسهُ دائماً ليغطّي أنفها وفمها، فلا يُظهر إلا عينيها حتى نكاد أن ننسى ملامح وجهها. أرى الحقيبة التي خرجتُ بها من المنزل. أغمضت عيني.

عيسى. ماذا تفعل الآن؟ هل تلعب في غرفتنا؟ بألعابي أم بألعابك؟ هل تغيّر شكلكَ؟ هل أصبحت أطوَل منّي! تشبه أبي كثيراً، هل مازالت عيناكَ مثل عينَي أمي؟ أتذكّر أيّام كُنا نقوم بالمساعدة لصنع "البثيثة مع أمّي، وجدّتي مريم، وخالتي فاطمَة، وجميع نساء العائلة. أتذكّرُكَ وأنت تريد الجلوس معنا فيخرجونك. تأتي وتختبئ خلفي أنا وماما سارَة. كانت درع الحماية لكلينا. أتذكّر التفاصيل جيّداً وتلكَ الأهازيج اللاتي كن يردّدنها. أستطيع رؤيتكَ وأنت تقول الكلمة الأولى من كل جملة، ثم تكملها بطلاسم لا نفهمها وتدفعنا للضحكِ جميعاً، إلى أن تصرخ بك جدّتي مريم:

- عيسى، اخرج. لا وقت لدينا. تكسّر ظهري وأنا أُخرِجُ الطُعم من التمر وتأتي أنت وتعيده إلى الصحن !

هكذا دائماً في ذي الحجّة، نحتفل بعودة الحُجّاج بصنع البثيثة. نقوم بدايةً بإخراج النواة من التمر، ثم نخلطُه مع الطحين المُحمّر. يقمن بتدليكه بأيديهن، كعجوز لا تمل من التهميز والتدليك.يضعن على النار القليل من الزيت والماء، مع عسل التمر، «الدبس»، والسمن والبهارات الخاصة في البثيثة، مثل الزنجبيل والهيل. يقمن بتحريكه

جيّداً إلى أن نصل المرحلة التي تبلغ سعادتنا معها ذروتها حيث يضعنه فوق سفرة مصنوعة من خوص النخل ويغطينها بأخرى. نقف نحن عليها غير متوازنين، ممسكين بأيدي بعضنا،خائفين أن نقع. نضحك، فيغضبن لأنهن لم ينتهين بعد من عملهن. نقف على سفرة الخوص، أو «الصرّود» كما نسمّيها، كي يُطبع على التمر شكله، قبل أن يصار إلى قصّه على شكل مربّعات، ليتم توزيعه من ثم على جميع الأقارب والمعارف وخاصة على الحُجاج.

هذه إحدى المناسبات التي كنت أستمتع بها مع عيسى. لا أعلم كم من الأمور ينبغي لي محوها حتّى أمضي بحياتي بعيداً عنكم. سأحاول، سأتعايش مع عائلتي الجديدة. ليس ذنبهم ، وليس من حقّي إلقاء أحزاني ونفسيّتي السيّئة عليهم.

تُشير الساعة الآن إلى الواحدة. خرجت لأشاهد التلفاز في الغرفة المقابلة لغرفتي. ما زالت تجلس هي وزوجها. عائشة وفارس. لا أعرف بم أناديهما أو كيف أسمّيهما. لا أستطيع أن أنادي امرأة غريبة ماما، ورجلاً غريباً بابا! عمّي وعمّتي سيفيان بالغرض إلى حين ما لا أعلم.

جلستُ معهما. تربّعت على الأريكة وتابعت التلفاز. المكان مُمتلئ برائحة البُن المُرّة التي تداعب أنفي بعذوبتها وجمالها، وتحملني معها لأطير. الرائحة تُجبرني على تقديسها، على أن تُصبح صديقتي الجديدة التي سأقضي معظم وقتي معها. تضع عمّتي عائشة

رأسها على كتف زوجها فارس، مُتحدين تحت الغطاء نفسه ليقيهما شر البرد، ليُبقي حبّهما في الحقيقة، وكي لا يتباعدا أبداً.

ابتسمتُ ابتسامةً صفراء. حضنتُ نفسي بركبتي وشددتُ ذراعيّ حولهما، وتابعت ما يجري على الشاشة الصغيرة. لم يتفوّها بكلمة منذ أن أتيت للجلوس معهما، يركزان على الفيلم الذي كانا يشاهدانه. كلّما قال البطل كلمة جميلة لحبيبته، التفتَ عمّي فارس نحو زوجته وقال مثلها. تضحك هي من خجلها، ممازحة «لا تقلّده، أريد كلمة جديدة». تقوم البطلة بمداعبة حبيبها، فتفعل عمّتي عائشة الأمر نفسه بخفر، بسبب وجودي معهما. لا أتبيّن من همسهما إلا حرف السين، وكأنهما يوسوسان بكلمات مُشفّرة لا يفهمها سواهما. غير أن حبهما جميل يجعلكَ تبتسم رغماً عنك.

بعد نصف ساعة، انتهى الفيلم. تحادثنا قليلاً، وقال لي عمّي بأنه سيعطيني بدءاً من يوم غد مصروفاً أسبوعيّاً أفعل به ما أشاء، وألا أخجل من الطلب منهما، وأنه بعد عام من الآن وحتّى يصبح عمري أحد عشر عاماً، سيعطيني هاتفاً كي أستطيع التواصل مع أخي عيسى ومع من أريد. وإلى ذلك الوقت، أستخدم هاتف المنزل. رفضت الهاتف المحمول، فعند عائلتي السابقة لا تأخذ الفتاة هاتفاً إلا بعد انتهائها من دراسة الثانويّة. اكتفيتُ بهاتف المنزل، وبالمصروف الأسبوعي.

ذهبا ليناما. وبقيت أنا. أخذت جهاز التلفاز وبدأت أقلّب في القنوات، إلى أن وصلت إلى قناة الرسوم المتحرّكة. أشعر بأنني

عطشى لمُسلسلي الكرتوني المفضّل «توم وجيري»، أنني أريد رؤيته حالاً ومعرفة آخر أخبارهما وآخر المغامرات التي قاما بها أثناء غيابي. لكن عيني لا تستطيعان المقاومة أكثر، فقد ازداد سهري في هذه الأيّام.

في غرفتي، أشعر غالباً بوجود رجل ضخم طويل، أشعث الشعر،غير مهذّب الذقن، عروق يديه واضحة، عيناه كعيني الصقر، يقف مقابلاً لسريري كلّ يوم.عند استيقاظي وقبيل نومي فقط. لا يتحرّك ولا يرمش. يحدّق في ما أفعل. في البداية، اعتقدتُ بأنني أتوهّم وبأن وحدتي هي من ترسم لي ذلك الرجل. إلا أنّه وبعد مرور أسبوع واحد فقط، أيقنتُ بأنّه حقيقة. لكنني لم أتجرّأ على لمسه. خفتُ أن ينقضّ عليّ. حتّى أنني أحياناً أنتظره إلى أن يختفي، كي أستطيع الذهاب إلى الحمّام.

عندما أنام وقلبي مُمتلئ بالضجر والتذمّر، أشعر برائحة القمامة تتسلّل إلى فضاء الغرفة، أفكّر أحياناً بارتداء كمّامة من فرط سوء الرائحة النتنة والخبيثة. وعندما نومي وقلبي يضجّان بالفرح، تُدقّ الطبول من حولي فتتراقص نبضاتي، أشعر بالزهور الفوّاحة وبرائحة مخمليّة لم أشتمّها قط لندرتها، وكأن روائح الورد والغيم والنقاء امتزجت فأنتجت هذه الرائحة التي لا مثيل لها. أعلم بأنها تُرهات، لكنني أشعر بها حقّاً، خصوصاً مع وجود هذا الرجل الأحمق. لا يهمّ. المهم أنني أقضي وقتي في الخيال الذي أصبح صديقي حديثاً، إلى جانب رائحة البُن الفاتنة.

استيقظتُ متأخرّة، ناعسة، كسولة. أفرك عيني بطرف كمّي ولا أريد فتحهما ولو قليلاً حتى لا يهرب النوم منهما. لكن، يجب أن أشاركهما وجبة الغداء. حاولت النوم مجدداً، ولكنّه حلّق مودّعاً. ليس هناك روتين أتبعه غير الذهاب إلى المدرسة، والرجوع منها، والدراسة والجلوس أمام شاشة اللاب توب لمشاهدة المسلسلات الكرتونيّة، وبعض ما أريد تعلّمه. أحياناً أقرأ كتباً لتنمية الذات وتطويرها، لاكتساب الثقة بالنفس والتأقلم مع أي بيئة. أن أتعلّم التبلّد وعدم المبالاة، أن أتعلّم كيف أكون أقوى حتّى ولو عشت وحيدة، والأهم، كيف أستطيع تدبير نفسي بعيداً عن أي مخلوق على وجه الأرض.

بعد أسبوعين من جلستنا تلك، وبعد أن أصبح مصروفي يكفيني لشهر كامل، أي بعد أن بت أستطيع تدبير أموري وحاجيّاتي، حملتُ حقيبة ظهري، وضعتُ فيها نقودي وبعضاً من البسكويت، مذكّرتي التي كتبت فيها بعض الأماكن القريبة من منزلي، والأرقام التي قد أحتاجها إن حدث لي شيء، مع بيجامتي المفضّلة، وخرجت. هربت. الحياة هنا ليست على مقاسي، إنها أكبر بكثير مما أريد. رئتاي لا تستطيعان تنفّس هواء أهلي الجدد، ولا حتّى ثغري يستطيع رسم ابتسامةٍ حقيقيّة معهم.

الساعة الآن الحادية عشرة قبل منتصف الليل. ارتديت سترة صوفيّة ثقيلة تقيني برد الخارج، وبنطلوناً قطنيّاً أسود. كالعادة، اطمأن عمّي وعمّتي علي الساعة العاشرة، ثم ناما لن يلاحظ أحد خروجي من المنزل الآن.

خرجت إلى المجهول، لا أعرف مكاناً في أبوظبي، ولا أعرف حتّى أحداً هنا لأتصل به. عيسى وأبي في رأس الخيمة، وهي تبلغ من البعد ثلاث ساعات. لن أستطيع الذهاب إليهما، وإن ركبتُ سيّارة الأجرة، فسينتهي مصروفي قبل أن أصل !

إني أقع في اللاشيء. وكأنني أسقط في حفرة لا نهاية لها، عميقة جدّاً ومظلمة. لا صوت أسمعه غير صدى خطوات أقدامي.

أول مكان فكّرت في الذهاب إليه هو ما وراء شُرفتي. أمشي على الرصيف قليلاً فأسقط، إلى الهاوية. رغم خوفي، صمدت في وجه مشاعر الرهبة التي اعترتني. قوّيت نفسي، أخذت أردّد آية الكرسي وأدعية كنت قد حفظتها سابقاً في المدرسة. لم أكن أعرف ما الذي أقوله، إلا أن لساني لم يكف عن الدعاء والبسملة، وعن التمتمات بحروف لم أفهمها أحياناً من شدّة البرد.

انهمرت دموعي فجأة، وبدأت بالركض. تخيّلت الرجل الذي في غرفتي يلاحقني، فركضت وركضت في الشارع الخالي إلا من حبّات الرمل المنثورة، والخطوط الصفراء المرسومة عليه. الضباب يأكل أعلى الصورة التي أمامي، لا أعرف ماذا سأواجه أو ماذا سيظهر لي بعد هذا الجري المتواصل. كنت أتلفت يميناً ويساراً، والأكثر إلى الخلف. تعثّرت بحجرٍ فوقعت، عاودت النهوض وركضت كي لا يمسكني، كي لا أرى عينيه الحمراوين أو وجهه، كي لا يضربني بعضلاته فتنفجر عروقه من قبضة يده. على جانبي الشارع، كُثبان رمليّة كثيرة كانت

تركض أسرع منّي، حتى أنني أحياناً لم أستطع اللحاق بها. لا أرى شجرة واحدة يمكنني النوم تحتها، ولا حتّى مكاناً به أستريح.

تعبت. أشعر باختناق أنفاسي. ركعتُ واضعةً يدي على معدتي والأخرى على ركبتي، وأنا ألهث كالكلب الجائع من شدّة التعب. نبضات قلبي تدقّ وكأنها ستخرج من جوفي. لا تخرج منّي يا قلبي، فإني أحتاجك. أمامنا الكثير لنفعله، لنتعرّض إليه. لم تر شيئاً بعد، لم يحدث شيء، إهدأ. إهدأ.

جلستُ على جانب الطريق، حضنت حقيبتي، وتأملت النجوم. هنا أستطيع رؤيتها أكثر من أي مكان آخر. الرمل بارد. وأنا مازلت أتأمل السماء وجمالها وكأنني أطلب منها أن تُدثّرني، أن تحميني، أن لا تفلتني، أن لا تجعل أي شيء يُحيي وجعي، أن تخمده، أن تقتله.

الساعة الآن الواحدة. لا أعلم أين أضع رأسي المُثقل بالتخيّلات التي لا تنتهي. هل أتوسّد الرمل وأنام، أم أن وحشاً سيأتي ويأكلني، أو أن الرجل سيصل إلي ويصبح قريباً جدّاً مني، أو... أعود إلى المنزل؟ أظن بأنهم لم يستيقظوا ولم يشعروا بغيابي حتّى. تحرّكت من مكاني عائدة نحو المنزل. فلأبحث عن طريق آخر أرمي فيه مخاوفي وأضيع.

تجوّلت بين المحلّات المقفلة، وكراسي المقاهي المقلوبة فوق الطاولات، بين درّاجات أصحاب البقالات الهوائيّة، والشوارع التي لا تهدأ من أصوات السيارات هنا وهناك.شعرت بالهواء يلفحني كلما مرّت سيارة من أمامي، ورأيت الركاب يفتحون نوافذهم ويتساءلون ما

بال هذه الطفلة تمشي وحيدة في مثل هذه الساعة. توقف البعض ظاناً بأنني ضائعة، سألوني عن رقم والدي وعن مكان إقامتي. تحاشيتهم كي لا يخطتفني أحد، أو يأخذني إلى الشرطة.لم أرد أن يبحثوا عن عائلتي التي لا أشعر بالانتماء نحوها، ولا حتّى بتأنيب الضمير لهربي المفاجئ منها.

ركضتُ نحو أحد الممرّات المحصورة بين البقالات الصغيرة. الرائحة مقزّزة جدّاً. تلفّتُ حولي لأكتشف المكان. رأيت النفايات المرميّة على الأرض، والقطط مقطوعة الذيل وسيّئة الرائحة وهي تحدق بي بأعينها اللامعة بخبث، وكأنني قطعت عليها وليمةً كبيرة واقتحمتُ عالمها الصغير حيث لا يتواجد سواها. لكنّني لم أقصد، سأختبئ بمخبئكم قليلاً وأخرج.

جلستُ في زاوية نظيفة، فوق صندوق توضع فيه الفواكه، إلى أن تخف حركة السير. هنا، حتّى ولو كان الوقت متأخراً، لا ينامون. لا يهدأون. لم أتحمل الجلوس في هذا المكان خمس دقائق إضافية، إذ راحت الرائحة تزداد قذارة تنحّيت جانباً، وخرجتُ مجدّداً كالمتسوّلة أمشي لا أعرف إلى أين. المهم هو أنني لا أريد العودة إلى المنزل. تابعتُ المسير. على الرصيف. أقفز مرّة حتى لا أدوس الزهر، وأنزل الشارع مرّة أخرى حتّى أمشي بخطواتٍ متناغمة وأنا أغنّي.

طيري طيري يا عصفورة / أنا متلِك حلوة صغيّورَة...

لكن، أين هي العصافير الآن؟ لابد أنها في أحضان أمهاتها، تختبئ

من البرد تحت ريشها. دمعت عيناي. أين أذهب؟ أين أوجّه قبلتي، ماذا أفعل الآن؟ أريد أن أرتاح. أن أنام.

أمام إحدى البنايات، هناك كرسي خشبيّ، رميت نفسي عليه ونمت فوراً من شدّة التعب. لم أستيقظ إلا وأنا اصطدم بوجه الشرطّي أمام عيني يتفحّص وجهي ويتساءل عن هيئتي الغريبة وعيني الخضراوين. هل تتكلّم العربية؟ ابنةُ من هذه؟أفقت من نومتي المُتعبة. خفضتُ نظري ولم أتفوّه بكلمة. حدّثني بدايةً بالإنجليزية إلى أن أجبته بالعربية، فأعاد سؤاله فوراً وسأل عن سبب خروجي في الليل ونومي أمام العمارة. أين أهلك؟ وكيف لهم أن يتركوا ابنتهم وحيدة ويهملونها هكذا؟

مجدّداً لم أتفوّه بكلمة، أخرجت مذكرتي الصغيرة وأعطيته إياها. فتحها وقرأ رقم عمّي وعمّتي. سأل ما إذا كان يستطيع التواصل مع أمي وأبي، فأخبرته بأنهما من أعيش معهما حالياً. تحدّث إليهما فأتيا مهرولين. من أخرجكِ وكيف خرجتِ! لماذا وما الداعي؟ وأسئلة كثيرة أخرى أرهقت ذهني. كان عمّي غاضباً كثيراً فشعرت بالشررِ يكاد يخرج من عينه، لكنه صبر احتراماً لرجال الشرطة الواقفين أمامي. خرجتُ وأنا أجرّ معي أذيال الخيبة. حسناً، لم تنجح هذه الفكرة،لكني سأعيدها.ليسَ من شيَمي اليأس والتراجع. سأخطّط لها جيّداً مستقبلاً.

عدنا إلى المنزل، ولم تخرس أصواتهما قط. يصرخ عمّي فارس في وجهي ويدير وجهه للخلف فجأة وكأنه يريد أن يضربني، فتمسكه

عمّتي عائشة. وأنا صامتة هادئة لا أتحرّك. لستما عائلتي، أستطيع فعل ما يحلو لي. استدرتُ نحو النافذة. حين نصل، أعلم بأن هجوماً عنيفاً سيشنّ علي. أعلم أنني، وإن لم أمت، سأخرج من المعركة بإصابات بليغة.

دخلنا المنزل، صعدت إلى غرفتي مسرعة الخُطى، وفجأة...

- هند!!!!

- نعم.

ثم حديثٌ كثير عار من اللباقة لفتاة في العاشرة من عمرها، ثمّ حديثٌ لا ينتهي ولسان لا يسكت ولا يمل أو يُقطَع، ثمّ هدوء صاخبٌ يعقبه صراخٌ يدوي في الوجود مرّة أخرى. ثم يدٌ تُرفع من شدّة الغضب. عينان تنفتحان بشدّة تحدّقان بهذه اليد وماذا ستفعل إن لم تمسكها تلك المرأة الواقفة أمامه.

كيف لرجلٍ أن يفكّر مجرّد التفكير بأن يمد يده على فتاة لم تتعدَّ عشر سنوات، ولم يعش معها سوى بضعة أيامٍ وشهور! لو أنني فقط أعود إلى الوراء قليلاً، لأقابل ذلك الفاسق المُسمّى أبي، وأبصقَ في وجهه. لو أنني أستطيع الذهاب إلى رأس الخيمَة، فأضع السمّ في وعاء جدّتي مريَم وتموت، أتخلّص منها وأعود معزّزة مكرّمة عند أبي وعيسى.

انتهت سلسلة الشتم والغضب. رمقتهُ بنظرة بدون أن أهمس بأي كلمة، ولم أبك، أو أدمع، أو حتّى أقطب حاجبي.ذهبتُ إلى غرفتي،

أوصدتُ الباب جيّداً، ثم دخلت في نوبة غضبٍ. مزّقتُ وسائدي، رميتُ كتبي، قلبتُ أريكتي وكسرتُ عطوري. أريد أن أُنفّسُ عن هذا الغضب. لا أريدهما أن يشعرا بي أبداً، ولا حتّى أن يعرفا بأنني غضبتُ من ذلك الحديث التافه.

أخذتُ نفساً عميقاً. أغمضتُ عيني. اهدئي هند، اهدئي. رفعتُ رأسي، طوّقتُه بيدي. حرّكتُ شعري بطريقةٍ فوضويّة، ثم قمتُ أغسلُ وجهي كي أعيد لجسدي الراحة. رتّبت كل ما أحدثته من فوضى، جمعتُ الزجاج المنثور على الأرض، الحمد لله أن بعض القوارير لم تنكسر، وضعتُ الكتب على الطاولة، رغم أن بعضها اتسخَ بالعطر حتّى ذابت أوراقه وأصبحت رقيقة تشفّ عما تحتها من صفحاتٍ وكلمات، ثم تنهّدت وكأن شيئاً لم يكن.

منذ ذلك اليوم، أصبح كلامي معهما بذيئاً، على الرغم من أن عمّتي ليس لها دخلٌ في ما حدث، وأنها كانت تذود عنّي ولا تسمح له بالصراخ علي. لكن كالعادة !

- والدكِ عصبيّ جداً، لا يستطيع منع نفسه أو التحكّم بغضبه.

لطالما عاملتني جدّتي مريم بالمثل. لا يحسبون لي أيةِ قيمة ولا حساب. لهذا أصمت، لا أتحدّث ولن أتحدّث حتّى.أصبحتُ أخرج كالصبيان، ألعب مع أصحاب البقالات في الخارج، بدراجاتهم الهوائيّة وأعود مساء. أصبحتُ هادئة جدّاً ولا أتحدّث إلا إن سألاني عن مكان شيء ما في المنزل، أو إن كنتُ قد أضعته. وإن لم أرد الإجابة أو لم

أعرفها، أقوم من مكاني متوجهّةً إلى المطبخ أو إلى أي مكان آخر، حتى يعلما بأنني لن أجيبهما وبأنني لا أريد أن أتكلم.

مرّ شهر، شهران. لم يتصل عيسى ولا أبي. مللتُ من إيجاد الأعذار لهما. إلى متى وأنا أنتظرهما،وأنا أنتظر منهما خبراً كي يعيداني لأعيش معهما، كي تعود السعادة إلى حياتي قليلاً.

وفجأة، أتتني فكرة. ذهبت إلى عمّتي عائشة، طلبت منها رقم الدار. حسبتني سأتصل بهم لأعود، لم تقتنع. أخبرتها بأنني أريد رقم جدتي مريم حتى أستطيع التواصل مع عيسى. أريد معاتبته. معاقبته. أي شيء.

اتصلت هي، ولكن المسألة تحتاج وقتاً وقد مضى على خروجي من عندهم شهران. فإلى أن يجدوا ملفّي، يجب علينا الانتظار. انتظرنا أمام الهاتف حتّى رنّت نغمته المُملّة. أتت بالرقم وطلبته وتحدّثت مع جدّتي مريم. أخبرتها عن كونها حاضنتني الجديدة، أو أمي الجديدة، لا يهم، كل ما كنت أنتظر سماعه هو : تفضّلي، تحدّثي مع عيسى. لكنه لم يكن موجوداً. أخذتْ منها رقم أبي أحمد وأقفلتْ الخط. ترددّتْ بالاتصال بدايةً. خفت أن يكون شيء ما قد حدث لهما ولهذا لم يتصلا بي، حاصرتني الشكوك ورحتُ أضع الأعذار لهما.

ثم، أمسكت بسماعة الهاتف واتصلت. أجابني أبي. تحدّثت معه، عاتبته. بكيت. ولأول مرّة،رأتني عمّتي عائشة أبكي. و... تحدّثتُ مع عيسى.

كيفَ لك يا عيسى أن تنسى أختك التي لطالما نامت بجنبك، التي تشاجرت معك، وأرضتكَ وسامحتك، التي غضبت منك لأنك فعلتَ فعلاً موحشاً، التي لعبت دور الأم وضربتك حتّى لا يقولوا عنكَ في المدرسة هذا يتيم، والدته ماتت، ليسَ لديه من يناديها أمي، ولا أن تلبسهُ صباحاً وتعدّل هندامه؟ كنت أستيقظ قبلكَ حتّى أنتهي من لبس ملابسي لأبدأ بك. تخيّل؟ على صغر سنّي، إلا أنني تخيّلتني أمك التي تركتنا ورحلت. نتناول فطورنا معاً أنا وأنت وأبي، ثم نذهب إلى المدرسة. نعود فنحكي ما فعلناه في المدرسة، ونصرخ حتّى يسمع أبي قصّة الآخر قبلاً. تموت غيرة كلّما طلبت حاجة من القرطاسيّة، فتقوم أنت بطلبها أيضاً، ثم تخبّئها في خزانتك.

أشتاق لأن أمسكَ يديك عيسى. أن لا أغضب. وأن نضحكَ كثيراً. نضحك ولا نبكي. وأكون بقربكما، أنت وأبي، بعيداً عن الكل.

وعدنا أبي بأن يزورنا ويتعرّف إلى العائلة التي تربّيني، فيصحّح غلطه بالابتعاد عنّي.

وانتظرته. وما زلت، أعد الأيام وأنتظرُه. ولم يفِ بوعده، ولم يأتِ...

6

اللعنَة! ما هذه القوّة التي جعلت العم فارس يكاد يكسر خشب باب غرفتي، في هذه الظهيرة!

بينما كنت على سريري آكل البيتزا، مندمجةً بأحد أفلام والت ديزني على شاشة حاسوبي المحمول، دخل العمّ فارس غاضباً يصرخ بعد أن رفس الباب برجليه كثيراً، ظاناً بأنه مقفل. وقعت اللقمة من فمي، وتسمّرتُ في مكاني وأنا أبحلق في عينيه وفمه الذي يتحرّك كثيراً وتتطاير قطرات اللعاب منه. دار في الغرفة ودار، ثم صرخ غاضباً:

- إلى متى ستحبسين نفسكِ ؟ إلى متى وأنتِ ترفضين محادثتنا والجلوس الى المائدة معنا؟

أزحتُ علبة البيتزا من أمامي، نفضت يدي من الفتات، ثم توجهتُ نحو حمّامي حيث غسلتُ فمي، قبل أن أخرج من الغرفة، متوجهة إلى الصالة حيث جلست عمتي عائشة، تاركة إياه وحيداً.

من فرط غضبه، تبعني مسرعاً، فتشابكت ورود المزهريّة الموضوعة عند زاوية غرفتي، مع ثوبه، فوقعت المزهرية وانكسرت. عاد يصرخ بقوة أكبر: كيف أتركه وأخرج وهو لم ينه حديثه بعد؟ كيف

لا أحترمه؟ لم يعامله أحد بهذه الطريقة من قبل، لكبر منصبه ومكانته الاجتماعيّة. ثم سبّني قائلاً بأنني عارٌ عليه وعلى عائلته، وتوالت الكلمات السيئة التي كنت أُمنع من لفظها، أو حتى التفكير بها، إلى أن وجّه طعناته إلى العمة عائشة، إذ قال إني ما فعلتُ ذلك، إلا لأنها أفرطت في تدليلي ومعاملتها اللطيفة معي. جرحها! لو أرادت طفلة لتقوم بتربيتها والعيش معها، فيجب أن تقسو عليها وتشدّ أذنها، لا أن تسمح لها بفعل أي شيء وكل شيء.

وضعت العمة عائشة يدها على كتفي تُطبطب علي. استدرت نحوها متفاجئة وكأنني لم أتوقع قط، بعد كل هذا الحديث القاسي، أن تفعل ذلك! يا لطيبتها! حتى وهي في أمس الحاجة لمن يربتُ على كتفها هي، تُطبطب علي.

أزحت يدها عنّي ووقفت، بعد أن زفرتُ هواءً من أنفي، وتوجهت إلى غرفتي. كان ما يزال واقفاً قرب الزجاج المكسور، فتحاشيت أن أدوسَ على الشظايا، ثم رفعتُ عيني في وجهه. لم أخف. نظر إليّ ولم أخف. مشيت. لحقني إلى الغرفة، أمسكَ كتفي بقوّة ولفّني نحوه. التفت ورفعتُ رأسي وأنا أبحلق فيه كالنسر قصير القامة الذي تستطيع رؤية قوّته وصلابته من عينيه. صفعني! صرخت عمّتي عائشة، غير مصدّقة. رأيتها تركض نحوي. ابتسمت. تلمّستُ خدّي. لا أذكر بأنني توجّعت، بقدر ما استغربتُ هذه اليد التي أمسكت من قبل، ولم أستطع اللحاق بها لأمسكها مرّة أخرى. تابعتُ حركة يده بعد أن طبعت

بصمتها على وجهي، إلى أن أنزلها ووضعها في جيبه. شعرتُ بطنين يرنّ ويزنّ في أذني، كذبابة نحل ضلّت الطريق داخلها. لقد صفعني. لم يفعل أحد من قبل. ولم أرَ في عائلتي من يتعرّض لصفعة. دائماً ما كانت أمي تردد: لا تضرب الوجه، فإنه يؤثّر على مخ الطفل.

كيف تضربني ؟! رمقته بطرف عيني ودلفتُ إلى الغرفة.

ركضت خلفي عمتي عائشة لتهدئني، لكنني كنتُ قد أقفلت الباب. منذ ذلك اليوم، أصبحتُ ألطم أي شخص أمامي، تحاشياً لأي ثرثرة مطوّلة. ذلك يعبّر عن غضبي ربّما، ولكني هكذا أتجنّب الحديث أيضاً.

بعد ساعتين من تكوّري على السرير كالمحار وأنا أفكّر، تذكّرت أنني طلبت من صاحب البقالة أن يحضر لي مجموعة من الشموع عند الساعة الثالثة والنصف، قبل العصر، أي في ميعاد قيلولتهما.

رصصتُ حبل حذائي جيّداً، أطفأت نور الممر الضيّق الذي يربطني بغرفتهما، ثم خرجت ومشيت ملاصقة للحائط، حتّى لا يُسمع لخُطى قدمي صدى. تفحّصت غرفتهما قبل أن أهمّ بالنزول إلى الطابق السُفلي. إنهما نائمان. نزلتُ مسرعةً وأنا أبتسم وأطبخ قدرَ أفكاري في عقلي. خرجتُ من البيت لأحضر ما طلبته. «الكيس»، رغم ثقله وامتلاء بطنه، إلا أنني أشعر به خفيفاً، طافياً، على يدي. دفعتُ للبقّال ما يستحقّ من النقود وأكثر، وعدتُ مسرعة إلى غرفتي. خبّأت ما اشتريت بين ملابسي في الخزانة. لن أستخدمه الآن. لاحقاً، بالتأكيد، سأتفنّن بطقوس استخدامه.

انتهت المهمّة الأولى. سمعتهما يتحدّثان. لقد استيقظا. هرولتُ إلى الغرفة المجاورة، بعد أن فتحتُ بابهما قليلاً، دون أن يشعرا. جلستُ مقابلةً للجدار الذي يتشارك مع غرفتهما. تربّعتُ على الأرض، وبدأتُ أنصت لحديثهما. أنا والجدران لدينا الآن آذان صاغية. كل ما ستفعلانه وتخطّطان لفعله، سأعرفه من دون أن تخبراني بذلك. بودّي أن أعرف ما الذي يدور في رأسيكما، بعد فعلةِ عمّي الشنيعة معي. هل تظنّانني خائفة؟ أتعتقدان أني سأسامحكما!

لم يتحدّثا عنّي. فضّلا أن لا يُفتح هذا الموضوع اليوم، وسيأتي الحديث عنه لاحقاً. قبل أن يهمّ عمّي بالخروج من غرفته، عدت إلى غرفتي. جلستُ على السرير راكعةً على ركبتيَّ، وأنا أتفرّج على الحديقة الخلفيّة كالعادة. هذا ما أفعله عندما لا أجد ما أفعله. كلما أغمضتُ عيني، مرّت الصفعة من أمامي. لن أنساها بسهولة. حتّى لو أنني حاولتُ أن أتناسى الأفعال المُرّة التي تحصل لي، ثمة ما يُرغمني على رؤيتها دائماً.

قـرّرتُ أن أقطع وحشة إحساسي بالفراغ، بالاستحمام. نزلتُ من على سريري، رميتُ قميص البيجامة القطني على الأرض، تناولتُ فوطتي من على الشمّاعة، ودخلت لأستحم. أقفلتُ الباب عليّ، ولأوّل مرّة. لن أخاف أحداً يدخلَ عليّ من نافذة الحمام، أو شيطاناً يخرج من فوّهة الحنفيّة ليلتهمني

تعرّيت تماماً من كل ملابسي، فتحتُ الماء ودخلت الحوض.

خصلات شعري الشقراء المبلولة غطّت عيني وآثار الصفعة. مددتُ رجلي وأغمضتُ عيني، فرفعني الماء قليلاً وشعرت أنني أسبح فوق غيمة خفيفة، والعصافير البيضاء تطير من حولي، تُسعد برؤيتي، فتغرّد فرحاً. ابتسامتي التي تملأ المكان أنستني صنبور المياه الذي تركته مفتوحاً. انتفضتُ فجأة، أغلقت صنبور الماء، ورفعتُ جسمي قليلاً كي لا أغرق. ليسَ بعد. ليسَ الآن. المُهم أن أتحرّر من تلك القيود التي وضعوها هالةً حولي، كالأب المثالي والأم المثالية، والابنة اليتيمة التي يجب أن تحظى بالاهتمام حتّى لا تتعقّد. أموركم هذه وتفكيركم هي ما يزيدني تعقيداً.

تزحزحتُ من على الحوض، تناولتُ فوطتي الزهريّة، مسحتُ بها جسدي، ثم لففتها حول وسطي. فتحتُ باب الحمّام بعد أن توقّف نبضي لبرهة لأن المفتاح لم يشأ أن يتحرّك. ما به ؟ هذا ليسَ وقتاً مناسباً للمزاح! شددتُ على المفتاح بعد أن ركلتُ الباب بقوّة، فانصاع.

خزانتي تقابلني. فتحتها وإذا بي أرى فساتين مزيّنة بكل الألوان وأحذية مختلفة. لمَ لم ألبس شيئاً منها إلى الآن، ولا حتّى فكّرتُ في تجربتها؟ ارتديتُ ملابسي الداخليّة أولاً، ثم أمسكتُ فستاناً ذا لون حليبي، في أسفله تموّجات فرنسيّة وشريطة ذهبيّة تحدّد خصره. سأجرّبه الآن!

ركضتُ نحو باب الغرفة، أقفلته، ثم أتيت مهرولةً نحو الخزانة. أمسكت الفستان وتأملته من كل الجوانب. أسرني! لم أستطع نزع

عيني عنه. فتحتُ السحّاب الخلفي لأرتديه، ثم وقفت أحدق به، مع ابتسامةٍ صغيرة على شفتي سرعان ما اختفت. لقد قرّرتُ أن لا أفعل. لن أرتدي فستاناً أبداً. رفعتُ السحّاب وأرجعت الفستان إلى مكانه داخل الخزانة، واستبدلته ببنطلون جينز كحلي، مع قميص أبيض عليه كتابة بالأسود.

«Don't give up»

فتحتُ الباب بخفة خشيَة أن يلاحظني أحد. أشعر بالجوع. لا أريدهما أن يرياني وأنا آكل. جريتُ إلى المطبخ العلوي، وأنا أبحث بسرعة عن الخُبز والجبن. أين الحليب، الكورن فليكس؟ من قام بتغيير مكانهما؟ ياه لا أريد أن أتأخّر. حملت كل شيء في يدي. وقع وعاء الجبن فجأة. رميت كل شيء من يدي وهربت الى الغرفة. فتحتُ كتابي وادّعيتُ بأنني أدرس.

سمعتُ صدى خطواتِ تجري باتجاه المطبخ. انتابني شعورٌ غريب. أحببتُ لعبة الشرطي والحرامي. أظن بأنني سأعيد الكرة، كي يبحثا عن الفاعل، كل مرة. من حُسن حظّي أن الخادمة كانت خارجةً تواً من الغرفة المجاورة لغرفة عمّي وعمّتي، بعد أن أنهت تنظيفها. رأتها عمّتي عائشة وهي تنزل وقد وصلت إلى نهاية السلم، والتفتت ناظرة إلى الأعلى عندما سمعت هيَ الأخرى، صوتَ ارتطام الزجاج. سمعتُ صراخهما وهو يعلو في أرجاء المنزل. صُمّت آذان الجدران. الخادمة جديدة ولا تفهم اللغة العربيّة كثيراً وتتحدّث الإنجليزية، أما عمّتي فلم تكن تتقن الإنجليزية. كانت اللغة المتبادلة بينهما العربنجيزيّة. لم تفهم

عمّتي ما تقوله الخادمة، لذا وبّختها وقالت لها إنها ستخصم من راتبها مائتي درهم.

مائتا درهم على جبن و خُبز؟ لا بأس، مصروفي يسمح لي بأن أعطيها القليل، لأنني أنا من تسبّبَ لها بذلك. سعر الخبز والجبن لا يتجاوز عشرَة دراهم. تكفيها عشرَة. وأما الباقي، فلا دخلَ لي به.

طُرِقَ الباب ثلاث طرقات، تجاهلته وكأنني لم أسمع. لن توبّخني عمتي عائشة، فهي لم تكتشف بعد من الفاعل. أرجو ألا تكتشفه أبداً. كنتُ أغمضُ عيني بقوّة وأنا أردد ذلك سرّاً، وعندما توقّفت الطرقات، اكتشفت بأنها دخلت أصلاً ولم تنتظرني لأقول لها ادخلي. قلت بأنني كنتُ أتخيّل شيئاً ما، ولأن خيالي كسول اليوم، أغمضتُ عيني بقوّة وكأنني أتعصّر. أرجو أن تنجح هذه الكذبة.

جلَست على السرير بجانبي وبيدها صندوق مصنوع من الكرتون البنّي، وعليه شريطة بنفسجيّة كما أُحب. قالت بأنها تُخطط لحفلة هنا، في الفناء الخلفي، وقد تحدّثت مع أفراد العائلة كي يحضروا أبناءهم وبناتهم يوم الجمعة، لأتعرّف عليهم وأُكوّن صداقات عميقة مع الفتيات. أضافت لألعب معهن ومن هذا الكلام السخيف، فيما كانت تتحدّث بهدوء كبير، كنت أتأمّل عينيها وتقاسيم وجهها التي كانت تحمل ابتسامة شفقة، أو ذاك الذّي يسمّى حناناً. في لحظة ما، توقّعت أنها ستبكي وأن عليّ أن أطبطب عليها. لكنها سكتت لثوان، ثم قدّمت لي الصندوق. مفاجأة. سأرتدي ما بداخله يوم الجمعة، كي أكون أميرة الحفلة.

- قومي جربيه.
- ها؟ لا لا، سأراه يوم الجمعة كي أتفاجأ أنا أيضاً به.

كما أريد. قالت كما أريد، ثم خرجت بعد أن سألتني عن دراستي وأصدقائي في المدرسة. طبعاً أجبت بأنني أحظى بشعبيّة كبيرة بين طُلّاب المدرسة وطالباتها، وبأنني الفتاة الأجمل في الفصل، درجاتي أعلى الدرجات، ولا أحد يمكنه التفوّق علي.

كنت أتحدّث وكأن فوق رأسي تاجاً أضعه لكثرة ما نفختُ بنفسي. بعد ذلك، استوعبت أنها تتحدّثُ إلي وأنني أخبرها ما يحدث معي في المدرسة. ما أخبره ليسَ صحيحاً، لكني لا أريد أن أتحدّث معها أكثر من ذلك، ولا أريدها أن تتقرّب إليّ، ولا حتّى أن تظّن بأنني أحبها. لا أحبّ أحداً ولا أريد أن يحبّني أحد. أنتما نكرَة. أنتما لا شيء.

تلعثمتُ وأنا أحاول الكذب كي تخرج. أعلم بأنها بسيطة ورقيقة، تذكّرني دائماً بماما سارة. لكني لا أريد أن أتعلّق بها. ومن ثُم أُترَكُ. ما أن أخبرني عقلي بأنني سأُترَك، قمتُ فجأة من سريري ودخلتُ الحمّام.

- معدتي تؤلمني وسأتأخّر، الأفضل أن تذهبي وإلا ستنتظرينني طويلاً.

جلست في الحمّام وجعلت أُخرج الأصـوات من فمي كي تصدّقني. اكتشفتُ لديّ موهبة جديدة، تقليد الأصوات. لا تبالغي هند، وإلا اكتشفت أنكِ كاذبة. أكملتُ إصدار الأصوات الغريبة، إلى أن سمعتُ باب غُرفتي يُغلق. لقد فتحت شافط الرائحة قبل خروجها. لقد صدّقتني.

خرجتُ فوراً، أتمنّى أن يخترع أحدهم مكيّفاً للحمامات ودورات المياه، تعرّق جبيني وتبلّلت ملابسي، كأنني تبوّلتُ على نفسي.

ركضتُ أبحث عن جهاز التحكّم بالتكييف، أخذته من فوق الطاولة التي بجانب سريري، ووضعته على الرقم ستّة عشر. أتمنّى أن يتأفف المكيّف بسرعة وتبرد الغرفة.

أصبحت الساعة الآن الحادية عشرة ليلاً. العم والعمّة نائمان. دلفتُ إلى المطبخ مرّة أخرى كي أبحث عن لقمةٍ آكلها، وجدتُ القليل من الطعام الذي بقيَ من عشائهما. التهمتُه كلّه، وحضّرتُ لي حليباً مع الكورن فليكس. أكلتُ كثيراً حتّى تجشّأتُ وامتلأت معدتي.

توجّهتُ إلى سريري ونمت. من غير حتّى أن أغسلَ فمي أو أفرّش أسناني.

اليوم الخميس. إنه اليوم الأخير من هذا الأسبوع. وأخيراً، لن أحتاج أن أحمل حقيبتي على ظهري، ولا حتّى أن أواجه المعلّمات والطلبة المُعقّدين، يومين إضافيّين.

عند عودتي من المدرسة، رأيت عمتي عائشة تنتظرني خارجاً. ما أن توقّفت الحافلة، حتّى سارعت لاحتضاني. هل تظنّ أنها، لمجرد قيامها بذلك، تصبح أمي؟

- ماذا تفعلين؟ هل جُننتِ؟

تحاشيتها وأنا أبعد ذراعيها عنّي، وأراقب إن رآنا أحد الطلبة الموجودين بالحافلة أم لا.

دخلتُ فوراً وتركتها عند عتبة الباب، تنظر إليّ بيأس وتتمنّى لو أنني فعلاً ابنتها وأعاملها كأمي. وجّهتُ نظراتي إليها خفيةً ثم رميتُ حقيبتي على الأرض، وركبتُ السُلّم. ستحضرها الخادمة إلى الغرفة. في طريقي، تذكّرت بأنني دستُ على الوحل، فجلستُ على إحدى الدرجات، في الوسط، خلعتُ حذائي ورميته من الأعلى وأنا أرقبه يطير في الفضاء، وأرى اللون الأخضر واللون البنّي يقعان منه فورَ ارتطامه بالأرض. مُقزِز.

صرخت للخادمة التي أعرف سلفاً بأنها لن تفهم شيئاً.

- لقد دستُ على الكثير من القاذورات، قومي بتنظيفه، ثم ضعيه مع بقية الأحذية.

رميتُ ثوب المدرسة عند باب غرفتي، قبل أن أدخلها، أغلقتُ الباب، دقيقتين فقط، ثم أعدت فتحه لأرمي جواربي المُتسخة، وقميصي. بقيتُ بملابسي الداخلية، قفزتُ على السرير، ونمتُ نوماً عميقاً.

استيقظت في الساعة السادسة مساءً، بسبب الضجيج المزعج للأجهزة الكهربائية والنجارة خلف غرفتي. بكل ما أوتيت من كسل، وقفتُ على ركبتي لأرى ما الذي يحدث ومن هذا الذي يهدم المنزل. كان هناك عدد كبير من الهنود الذين يصنعون طاولات من الخشب. العم فارس معهم. وعمّتي عائشة، متلثّمة بحجابها كي لا يُرى من وجهها شيء، توجّههم ليضعوا هذا هنا، وذلك هناك. البالونات الملّونة

معلّقة في الأعلى، والزينة باللوّنين الزهري والبنفسجي، كما أحبّ تماماً. الأعلام ذهبيّة... فركتُ عيني، هل كانت صادقة في حديثها عن الحفلة؟

أشعلتُ ضوء الغرفة، بحثتُ عن الصندوق الذي أحضرتهُ لي، فتحته بسرعة، فيه فستان يشبه فساتين الأميرات. فستان ساندريلا. سماوي اللون وحجمه يتسّع ويزداد من الخصر الى الأسفل. ما أجمله! ما أجمله!

عدتُ إلى السرير لأراقب تجهيزاتهم. السيارات تذهب وتعود. أحدهم يحضر الكعك والآخر يُحضّر الطاولات، وثالث يضع الألوان والزهور على أطراف الحديقة الميتة. لقد أحيوها بالألوان وبالزهور المتفتّحة، حتّى الزهور كانت باللوّنين الوردي والبنفسجي. ابتسمتُ ابتسامةً كبيرة. هذه الحفلة مُجهّزة فقط من أجلي. حتّى في منزلي، لم يفعلوا لي ذلك. تلاشت الضحكة. لكنني، لا أشعر بالانتماء إليهما؟ كيف سأفرح وأكون على طبيعتي؟ ثم أنني لا أريد أن أتصالح معهما. أنا لا أحبّهما. لأنه ما أن يتعلّق قلبي بهما ويحبّهما، سيتخلّيان عنّي.

أسدلتُ الستارة على النافذة. أسندتُ رأسي إلى السرير، رفعتُ قدمي لمستوى صدري، وضممتُ ركبتيّ إليّ. هل تشعر بي أمي الحقيقيّة؟ يقولون بأن قلب الأم يشعرها دائماً بأبنائها. هل تشعر بضيقي وحُزني؟ هل تبكي اللّيل ندماً؟ هل تتشاجر مع أبي الحقيقي لتعرف من قام بأخذي؟ أين عيسى؟ أبي؟ هل نسياني، أم أنهما تناسيا وجودي!

وأمي سارة، هل تراني من السماء؟ هل ما تزال تحبّني كما أنا وتُحبّ جنوني؟ أصلاً أنا نفسي نسيتُ كيفَ كنتُ هناك. الحياة كانت بسيطة وجميلة معهم. هنا، لا أستطيع أن أكون فتاة صالحة. لا أحبّ أن أوسّخ المنزل ولا أن أتجنّب الحديث مع عمّتي عائشة. لا أريد أن يصرخَ عليّ عمّي ولا أن يعاملني بقسوة. أنا طفلة بريئة جميلة. لا أستحق هذا كلّه. نعم، أنا أستحق ما يُفعل من أجلي بالخارج. لكني أستحقه دائماً، وليسَ فقط كي يتقرّبوا منّي، أو لأتعرّف إلى أبناء العائلة.

الفستان هنا أمامي. أتمنّى لو أرتديه الآن وأركض لأريها بأنه على مقاسي. وبأنني أحببته جدّاً. لكني لم أقم بتجربته حتّى لا أحبّه، ولا أنام الليل وأنا أرتديه. ارتديت بجامة ورديّة وخرجتُ لأجلس عند التلفاز. دخلت عمّتي بعد خمس دقائق، جلست بجانبي، ادّعيتُ بأنني أشاهد التلفاز بكل حواسي، وأنني لم أشعر بها.

- هند، هل قمتِ بفتح الصندوق؟
- ها؟ لا.

أزحتُ نظري عنها كي لا ترى الكذب في عيني. لم هي طيّبة إلى هذا الحد، لم؟

انتهى الفيلم الذي كنتُ أشاهده. وقفت أهمّ بالذهاب إلى الغرفة. نادتني. «لا تذهبي، أريد أن أتحدّث معكِ قليلاً". جلست.

- هند، تعلمين بأنني وعمّكِ فارس نعيش وحدنا منذ مدّة طويلة. أردتُ أن تكون لي طفلة جميلة مثلكِ، ترتدي ما

أرتديه، تشاركني الأفلام، ونخرج معاً للتسوّق والأكل واللعب. حتّى أتيتِ أنتِ. ظننتُ بأنني سأفعل كل ذلك معكِ. كنتُ سعيدة جدّاً. لكنّكِ لم تستجيبي لكل محاولاتي معكِ. غداً، نقيم لك حفلة هيَ لي أيضاً كي أبدأ معكِ صفحة جديدة. أرجو أن تتقبّلي هذه الفكرة. فأنا أحبّكِ كثيراً، وأعدك كابنتي الحقيقية، لكنّكِ تصدّينني باستمرار.

شعرت بأني اشتقتُ كثيراً إلى أمي سارة. احتضنت عمتي عائشة بين ذراعيّ الصغيرين، وبكيت. كنتُ أرى وجه أمي عليها. فرحتْ كثيراً، فبكت معي. لم أكن أتوقّع أن تبكي. دمعتها دائماً قريبة منها. قلتُ لها بأنني آسفة، طبعتُ قبلة على جبينها كي تهدأ، وذهبتُ الى غرفتي بسرعة كي لا يراني العمّ فارس. لا أريده أن يعرف بأن علاقةً ما توشك على البدء بيني وبينها.

، وقفت أمام النافذة أنظر إلى الحديقة الخلفيّة. ما أجملها الآن مزدهيةً بالألوان، ترتدي أجمل حللها. تخيّلتُ نفسي غداً، كيف سيلتفّ الأطفال حولي، نقطع الكعك، ونجري حول آبائنا وأمّهاتنا. مهلاً، مهلاً، أنا ليسَ لديّ أم، ولا أب. لن أتخيّل كثيراً.

أقفلتُ باب الغرفة، ارتديت الفستان الجديد ووقفتُ أمام المرآة. شعري ذهبيّ ناعم منسدل يصلُ إلى نصف ظهري، عيناي خضراوان واسعتان، بشرتي ورديّة ناعمة صافية، وطولي يصل إلى مائة وخمسة وعشرين سنتيمتراً. كل هذا يُبشّر بمستقبل جيد، فلم أنا وحيدة دائماً، لم؟

خلعتُ الفستان عن جسدي، ولم أرتد بجامتي. أحبّ أن أجلس بملابسي الداخلية والهواء يلفحني من كل جانب. أكره الحرّ الشديد والشمس. لا أحبّ الضوء حتّى. صديقة اللّيل أنا، والرسوم المتحرّكة.

أصبحت الساعة العاشرة مساءً. الكعك المُقولب بالأشكال الجميلة أذهلني. لن يلاحظ أحد غياب كعكة واحدة من الثلاجة. لا أريد أن يراني أحد وأنا أتلذّذ بأكله. بحثتُ عنه في المطبخ السفلي، إلى أن وجدته. كان قد وُضع في الأعلى، فلم أستطع الوصول إليه. فكّرت بإيقاظ الخادمة، لكنها ستخبرهما بأنني أنا من سرق الكعك. أحضرتُ الكرسي ووضعته أمام الثلاّجة، وقفتُ عليه، فتحت الصندوق وأخذتُ كعكةً واحدة. لذيذة. عجيبة. لونها الأحمر أعجبني وطعمها أكثر. مزيّنة بالزهور الورديّة وأوراق صغيرة خضراء. المهم أنني أردتُ أن أجرّب كعكة الشوكولاتة أيضاً التي بجانبها. لا أعرف كيف أقوم بقصّها وأعلم بأنني سأقوم بتدمير الكعكة بأكملها إن فعلت. مسحتُ إصبعي على الكريما التي تغلفها. مممم، بطعم النوتيلا. أتمنّى لو أنني أعيش داخل الثلاجة وآكل كل يوم ولا أشبع. المهم أن لا أشبع.

سمعتُ صوت خطوات، فنزلتُ من على الكرسي بسرعة ونسيت باب الثلاجة مفتوحاً. وجريت. ثم عدتُ مسرعة كي أغلقه فلا يلحظ أحد بأن فأراً ما مثلي تسلّل إلى المطبخ، وركضتُ إلى الأعلى. لكن، لا أحد. أيعقل أن تكون الخطوات لأشباح تعيش معنا؟

ليتني أستطيع النوم بجانب عمّي وعمّتي. هذا المساء، لم تأت

عمّتي كي تطمئن عليّ. أظن أنها لم تصدّق قبلتي لها، وخافت أن أحدّثها مجدداً بطريقة سيّئة، لهذا لم تأتِ.

أنا خائفة. لا أعرف ماذا أفعل. لا يوجد أحد غيرنا هنا. هما نائمان والخادمة لديها ملحقٌ خارج الفيلا. لا أظنها من دخلت. لا أصدّق أني ما زلتُ أفكّر بالأمر. سحبت غطاء سريري ووسادتي. تردّدت بفتح باب غرفتهما. لكن... لا، لن أدخل. سأنام هنا إلى أن أسمع صوت أذان الفجر، فأحمل نفسي وأعود إلى الغرفة، ولا من رأى ولا من درى.

وضعتُ فراشي أولاً، ثم عدتُ لآخذ الغطاء والوسادة. نمت واضعةً يدي على خدّي. خشيَة أن يستيقظ عمّي ويقوم بصفعي مجدّداً، لأنني نمتُ هنا على الأرض.

أعتقد بأنني أستيقظ كل خمس دقائق بالضبط، كي أتفحّص المكان. أخشى الحشرات كثيراً وخاصة الصراصير. لا أريد أن يلتصق برأسي واحد منها، ولا أن يدخل عنكبوت أنفي، أو يتسلل فأر إلى بنطال بيجامتي... فأر يتسلل؟ لا، لا.

قمتُ بسرعة متوجّهةً الى الغرفة، رميتُ بنطالي فيها وبقيت بالقميص. عدتُ لأنام والوساوس ما تزال تحوم حولَ رأسي. الساعة على الحائط تشير إلى الساعة الثانية والنصف صباحاً، وأنا ما زلتُ أغفو قليلاً ثم أستيقظ كي أراقب الحشرات من حولي. أكره الوقت عندما يمرّ بطيئاً.

التصقت بالجدار بعد أن اعتدلتُ بجلستي واضعةً يدي على

خدّي، إلى أن يخرج الصباح وأطمئن. من شدّة الهدوء والملل، أستطيع سماع تكتكات عقارب الساعة وهي تدور وتدور. ساعة. ساعتان. غفوت وأنا جالسة، إلى أن وقعت واصطدمتُ بالرخام. أخخ، رأسي. جعلتُ أمسح يدي في كل بقعة من رأسي حتّى أتأكّد بأنني لا أنزف. إنه الفجر. دقائق فقط ويخرج عمّي فارس للصلاة. حملتُ كل شيء وعدتُ إلى الغرفة. فتحتُ المكيّف ونسيتُ نفسي على السرير. لا أذكر إن كنتُ قد غطّيتُ نفسي أم لا. المهم أن عيني مُرهقتان، ورأسي يؤلمني، ولا أستطيع المقاومة أكثر.

يوم الجمعة. اليوم المُنتظر.

الرؤية محجوبة، الظلام دامس. يلاحقني كثر كي يضربوني، لا أعرف أين أذهب أو أفر. لن أفلتَ من قبضاتهم، سيمسكون بي بالتأكيد. أنا واحدة وهم قطيعٌ من الأرجل الضخمة التي تجري خلفي. لا أستطيع التنفّس ولا حتّى صوتي يظهر. إنني أختنق، أشعر بالهواء ينقطع مع كل خطوة أخطوها. أتخبّط على الجدران الرطبة. أصواتٌ غريبة لا أستطيع تحديد مصدرها، ولا حتّى تبيّن طبيعتها. أسقُط أرضاً. يتلقفني أحدهم. يصرخ: أمسكتُ بها.

يعلو صراخ نصر، يتبعهُ دوي أقدام مهرولة. أستطيع تمييز صوت الماء الآن، إنهم يركضون فوق المياه. تبلّلت ملابسي. وأظنّ بأنني تبوّلت على نفسي من الخوف قبلَ أن يصلوا إلي.

أرى نفسي يائسة بائسة لا أتحرّك. الجميع يتهافت كي يلطمني، كي يطبع صفعته على وجهي، أُغطّي نفسي، أصرخ بلا صوت. لا أحد بجانبي. إنّني أستنجد، لكن صوتي لا يصل إلى أحد. صفعني هذا على وجهي. والآخر على عيني. أشعر بعيني فجأة وهي تنتفخ. ورمٌ بنفسجيّ على طرف وجهي. يلطمني الثالث على أنفي. ينكمش إلى الداخل. أفقد حاسة الشّم. ثم...

استيقظت. كابوس. إنه كابوس. لن يصفعني أحد ولن يلحق بي مخلوق. إنها الساعة العاشرة صباحاً، أتنفّس بقوّة وكأن جيشاً من الهواء كان محبوساً بالداخل وقد سُمِحَ له بالخروج الآن للكفاح والارتياح. آخخ، رأسي. جريتُ بسرعة إلى المرآة لأشاهد تفاصيل وجهي، لا أصدق. إنّه حقاً كابوس. عيني ما زالت جميلة، وأنفي مازال بالخارج مرتاحاً يشتمُ كل شيء. حاولت العودة إلى النّوم، لا أريد الاستيقاظ باكراً. لكنني لم أستطع النوم لأنني، كلما أغمضت عيني، أرى كفّاً تضربني على وجهي. إلى أن اقتنعتُ بأنّني إذا وضعتُ يدي الاثنتين على وجهي، فلن يتجرّأ أحد على لمسي، حتّى ولو في الحلم. وغرقت هذه المرّة بالنوم مدّة ساعتين و نصف و أنا أحضن وجهي بيدي، واستيقظتُ عند الساعة الثانية عشرة ظهراً. خرج عمّي ليتأهّب للصلاة، رأيته عندما غادرت غرفتي لأراقب التجهيزات. متحمّسة جدّاً أنا، لكنني خائفة من أن أُفسد هذا اليوم عليّ.

نزلت الى الطابق السُفلي وأنا أتثاءب. دخلتُ المطبخ لكي أرى

إن كان قد لاحظ أحدهم الكعك المفقود، أو الكريمة التي أزلتها. لم يكن هنالكَ إلا الخادمة وهيَ تُحضّر الغداء. شربتُ كوبَ ماء، ثم انتظرتُ قليلاً حتّى تتحدّث إليّ، لكنها لم تفعل. إذاً، لم يلاحظ أحد الكعك. دلفتُ إلى الغرفة كي أستحمّ وأغسل جسدي من الصفعات التي لحقت بي بالحلم، ورأسي من الكوابيس المخيفة التي تتبعُني. أغلقت الباب خلفي. فتحت الصندوق مرة أخرى. إذاً سأرتدي هذا الفستان اليوم، سيلتفّ من حولي الأطفال كي نلعب ونلهو. أتساءل هل أخبرت عمّتي عيسى؟ هل سيحضر ليلتقي بي؟ وضعتُ الفستان جانباً، تناولتُ فوطتي ودخلت الحمام.

ما أن غرقتُ وسط بركة المياه في حوض حمّامي، حتى أتت عمّتي لتتفقّدني. طرقت باب الحمّام وهي تحثني أن أسرع بالخروج. أخذت فوطتي وخرجت. كانت تنتظرني على السرير. ارتديت ملابسي الداخلية أمام خزانتي، وجلست على الكرسي المقابل للسرير، متربّعةً عليه. سألتني إن كنت قد رأيت الفستان أم لا، وإن كان على مقاسي، حتّى تستبدله قبل أن يبدأ الحفل. تلعثمتُ بالبداية. أردت أن أقول لا، لكن كان واضحا بأن الشريطة قد مُزّقت أصلاً.

- قياس جسدي بالضبط. وكأنكِ تعرفينه.

فرحت واتسع فمها سعادة، وقد شعرت بأنها حقّاً أم. لكي لا تحلم كثيراً، قمت من أمامها وقلتُ لها:

- أعرف بأن الأطفال مشاغبون، أعتقد بأنني لن أحتفل معهم. أنا لا أحب الإزعاج ولم أعتد عليه.

ولجتُ الزاوية التي بين حمّامي والخزانة لأغطّي باقي جسدي. بنطالٌ أبيض مع قميص زهري. تعجّبت عمتي عائشة ورفعت حاجبيها استغراباً. نعم؟ لن تحضري؟! إذاً الحفل المقام في الخارج لمن؟

وكأنني لا أسمع ولا أرى ولا أتكلّم، ذهبت الى المطبخ لآكل. أشعر بالجوع. أعلم بأنها تغضب، ولكنها تكتم ذلك في داخلها. لا بأس. هي كبيرة، ستتحمّل. لديها القدرة على فعل كل شيء. إنها كبيرة بالسن. الكبار يستطيعون فعل ما يشاؤون.

بدأ الناس يتوافدون إلى المنزل، جمعٌ غفير لم أر مثله في حياتي. عائلتهما كبيرة. الأطفال عندهم كالدمى الملوّنة، يلبسون كل الألوان والأشكال. بعض الفتيات يضعن التيجان على رؤوسهن، وبعضهن تفنّن بأشكال تسريحات شعورهن. المنزل أصابه الجنون، لم أستمع إلى هذا الكمّ من الأصوات من قبل، لا أستطيع التركيز مع شخص واحد، وكلّ منهم يتحدّث بصوتٍ مرتفع.

بدأ الجوّ يبرد في الخارج، نسمات الهواء تُدغدغ الشرائط والأعلام. تخرج الخادمة لتضع الكعك والطعام، يحضر المهرّج ذو الأنف الأحمر و الوجه المستحمّ بالطحين، تأتي فتاة ترتدي زي 'ميني ماوس'، و رجل يبيع البطاطس المقليّة. هُناك، على الزاوية، أحدهم يرسم على الوجوه. كل هذا وأنا أراقب من النافذة. أتت عمّتي لتلبسني فستاني. سندريلا الحفل أنا، أميرةُ المكان. ألبستني إيّاه، وفرحتُ بشكلي بعدما رفعت شعري كلّه للأعلى بشريطة زهريّة تناسب ألوان الحفل. خرجت. قالت لي: رشّي القليل من العطر عليكِ وانزلي.

حدّقت بنفسي كثيراً أمام المرآة. لم أنزل، بقيت متسمّرة في مكاني، مثلما تركتني. خمس دقائق، ثم غيّرتُ ملابسي. ارتديت البيجامة التي أحبّها ولا تحبّها هيَ. تقول بأنها قديمة جدّاً و أصبحت بالية، لكن لا يهمنّي. أحبّها مثلما كانت. تردّدتُ بالخروج أولاً، الكل مُتزيّن وأنا لا أرتاح إلا بالبيجامة. المهم أنّني نزلت. و لأن الجميع كان بالخارج، كنت أتخيّل نفسي سندريلا حقّاً. أمسكت طرف السلّم بيدي، وباليد الأخرى بنطالي وكأنه الفستان المنفوش الملكي، وابتسمت يميناً ويساراً. لا أحد يراني، إلا الأطياف ربّما. وصلت إلى نهاية السلّم. ذهبت إلى الباب الخلفي ودخلتُ عليهم متسلّلة. لم يبدأوا بالأكل بعد، يقولون بأنهم ينتظرونني. سمعت أحد الأطفال يصرخ:

- من هذه الفتاة؟ اليوم حفل كبير، لماذا لم تتزيّن مثلنا؟ إنها لا تسمع الكلام. احرموها من الأكل واللعب.

هل الذي لا يلبس فستاناً، يُحرَمُ من اللعب والأكل؟ لا يستطيعون حرماني، أنا الأميرة أصلاً هنا. التفتت إليّ عمّتي عائشة، صدمت.

- قبل قليل، كنت معها. كنتُ قد ألبستها فستانها و سرّحتُ لها شعرها ! لا أصدّق أنها فعلت ذلك.

أتت مسرعةً نحوي.

- هند، ماذا تفعلين. اذهبي بسرعة و ارتدي ملابسكِ مجدّداً، هل جُننتِ؟

رمقتها بطرف عيني وتجاهلت ما قالته. توجّهت نحو الكعك. منذ البارحة وأنا أحاول المقاومة، لا أستطيع التحمّل أكثر. أمسكت ثلاثاً بيدي، لم أستطع أن أحمل الرابعة، فوضعتها بفمي وبحثت عن زاوية ألتهم فيها هذا الكعك اللذيذ. جلستُ على صخرة كبيرة ورحتُ آكل. حتّى أن أنفي أكل معي. يشبه أنف المهرّج، لكنّه وردي وليس أحمر. انتهيت من الكعك. أريد عصيراً. المكان مزدحم جدّاً ولا أحد يأبه لي. الجميع منشغل بالأكل، بالضحك. بالجري والصراخ المزعج. عمّتي عائشة تقف بجانب العصائر. ستراني وتصرخ مرّة أخرى. تنحّيتُ عن الصخرة. كنت أمشي كالحرامي بين الطاولات، إلى أن وصلت إلى طاولة العصائر. اختبأتُ تحتها. ما أن أدارت عمّتي عائشة ظهرها، حتّى خرجتُ، أخذت عصير برتقال وهربت إلى مكاني حيث شربته ورميت الزجاجة بين الأشجار. لا أزال عطشى. أريد المزيد من المشروبات. عدتُ وأخذت عصير برتقال آخر. وأنا أهمّ بالخروج من تحت الطاولة، اصطدمتُ بسقفها ووقع العصير من على أطرافها. يا إلهي. سأقتل. ركضت بسرعة بين الأطفال لأمثّل أنني اندمجتُ معهم وأنني أحببتُ التواجد بينهم. ما أن شاهدتني عمّتي هكذا، حتّى نسيت فعلتي وأكملت ثرثرتها مع النساء الموجودات. قبلَ أن أذهب الى طاولة الكعك، كنت قد صفعت فتاة. حاول أخوها الدفاع عنها، فصفعته أيضاً وهربت. كانت تبكي ودموعها تنهمر بغزارة، وهي تصوّب سبابتها نحوي. وأنا، كلّما رأيتها هكذا، أعطيتها ظهري وأكلت كعكة ورديّة. لم

تصدّق عمتي بأنني من ضربتهما. تقول بأنني هادئة، وأنهم يكذبون. أنا شريرة. أنا أعلم بأنني شرّيرة. لستُ تلكَ التي تضحك وتخاف وتهرب. تلوّن قميصي بالكريما البنفسجيّة والورديّة. آكل وأمسح بملابسي. جميع النساء غاضبات، لماذا يا عائشة، قبل أن تتبنيّ فتاة، لا تسألين عن أخلاقها وتصرّفاتها ؟

- هي هادئة، صدّقوني، لكنها متحمسة. إنها المرّة الأولى التي ترى فيها أطفالاً بهذا العدد.

كانت تحاول الدفاع عنّي، لكنّني كنت مشاغبة بالفعل. لم أستحق ذلك. أقصد بلى بلى أنا أستحقّ. هي تقول بأنها أمي، على كل أم أن تدافع عن طفلتها وتحميها.

نادى منادٍ من بعيد أن هلمّوا حان وقت الشوكولاته، فتراكض الأولاد كلّهم وكأنهم يتسابقون في لعبة الكراسي، ويسارعون ليحجز كل منهم كرسيه حتّى لا يُطرد من اللعبة. أخذ كل واحد علبة مملوءة بالفراولة والشوكولاته الحارة الذائبة اللذيذة. رحتُ من خلف الرجل الذي يوزّع هذه العلب، ودفعته إلى اليمين بكل قوتي. شكراً للرب أنه كان نحيفاً. وضعت يدي داخل النافورة، ثم في فمي حتّى أتذوّق الشوكولاته. إنها لذيذة. كنتُ سأُدخل رأسي الآن، لأشرب السيل البنّي الذي ينهمر من الأعلى، لكن يداً ما منعتني وسحبتني نحوها.

نعم! كنتُ فقط أجرّب وأتذوّق حتّى أخبركم إن كانت لذيذة أم لا ! سأعتبركم مستغنين عن خدماتي، حسناً؟ لا أستطيع التذوّق مرّة أخرى؟ أها، يجب أن أقف بالطابور إذاً، طيّب طيّب.

تقدمتُ وكأنني سأقف في الطابور، لكنّني تنحّيتُ فجأة وعدتُ من الخلف لأركل الرجل المتغطرس في مؤخرته. هذه حفلتي يا غبي. يجب أن تعطيني ولا تجعلني أنتظر في الطابور.

حان وقت اللعب. أتت سيّدتان لترسما على الوجوه. تزاحم الأطفال عند طاولتهما. اختارت الفتيات شكلي الفراشة وميني ماوس، واختار الأولاد شكلي الرجل العنكبوت وميكي ماوس. طارت الفتيات بوجوههن، وتسلّق الأولاد الجدران، ثم حان وقت الأكل، فأكلوا وملؤوا بطونهم حتى شبعوا.

جاء وقت تقديم الهدايا. أخذت الهدايا ولم أقل شكراً ولم أبتسم أو أودّعهم، ركضت فوراً لأفتحها، ألعاب وفساتين ودُمى والكثير والكثير من الهدايا. رميتها فجأة، لا أريدها الآن. أفتقد أن يشاركني عيسى فرحتي. لم يأت اليوم. لا يهم. غيّرتُ ملابسي وغسلتُ وجهي. أغلقت باب غرفتي، حتى لا يأتي عمّي ليضربني مرّة أخرى. نمتُ واضعةً يدي على خدّي.

اليوم السبت، والمنزل أصبح مملّاً، لا جديد فيه. الروتين هو نفسه يتكرّر. الفضول يمزّق أفكاري، كيف هي الحياة في الخارج؟ ماذا يفعل الناس من الصباح حتّى المساء وكيف يقضون أوقاتهم؟ انتظرت موعد القيلولة وخرجت مسرعة.

مررتُ أمام الدُكان الذي بجانب المنزل. كان سيغلق. يقول صاحبه بأنه وقت قيلولته أيضاً، إلى الساعة الرابعة. لحقت به. إنه

يسكن البناية نفسها التي تُهتُ فيها تلك الليلة. ما أن دخل، جلست على الكرسي المقابل نفسه. الكثير مِمن هم من جنسيته نفسها يتوافدون، إلى أن رآني رجل طيّب المُحيّا، لبق، أتى وجلس بجانبي. خفتُ أن يأخذني إلى الشرطة، أو أن يصفعني، أول ما وضع جسده على الكرسي المُحاذي لي، حتّى وضعت يدي على وجهي أغطيه بها. أمسك يدي وقال لي لا تخافي، لن أؤذيك. أنا مثلكِ وحيد وأريد أن أتبادل أطراف الحديث معكِ.

- اسمي مفرح، وأنتِ يا حلوة ما اسمكِ؟
- لا أقول اسمي للغرباء.
- لستُ بغريب، أنا صديقكِ الجديد.
- أنا لا أصادق الكبار.

ووقفت. أمسكَ بيدي وقال: أريد التحدّث، أخبريني لماذا تجلسين في هذا المكان الخطير وحدك، ولماذا هكذا أنتِ متوتّرة؟

طبيعي أن أكون متوترة يا هذا، رجل كبير غريب يتحدّث معي، من يفكّر أن يخرج أصلاً وقت الظهيرة، إما مجنون أو شخص يخطّط للهرب مثلي. وأعتقد بأنكَ مجنون.

أزحتُ يده من على كتفي ومشيتُ مسرعةً الى المنزل. ضحك! لا أعرف ما المضحك في الموضوع، لكن كما قلت، هو مجنون! دخلت. ما زالا نائمين. صعدتُ إلى الغرفة وجلستُ أفكّر. إلى الآن، لم أواجه عمّتي عائشة؟ تُرى ماذا ستفعل بي؟ هل أخبرت عمّي؟ هل سيضربني

مجدداً ؟ هل هما غاضبان مما فعلته ليلة أمس؟ لكني كنتُ على طبيعتي كما يريدون، ولم أتأقلم مع المشاغبين. هذا كل ما في الأمر.

دقيقتان فقط ودخلت عمّتي. لم تكن نائمة. أتت إلى غرفتي ولم تجدني. كان حاجباها ملتقيين يتشاجران. وكأنني لا أعرف ما الموضوع، نزلت من على سريري وأخذت حقيبتي وأخرجت الكتب. كنتُ أكتب، لكنها خربشات. لم يكن لديّ واجب ولا امتحان. كنت أكتب وأكتب، لكن كلمات لا تفهم.

فجأة:

- ما الذي فعلته في حفلة البارحة ؟ وأين كنتِ منذ قليل؟
- لم أفعل شيئاً... كنتُ أزور صديقتي.
- من من أصدقائكِ يسكن بالقرب منّا؟
- لا أحد، أقصد قطّتي القطّة، وجدتُ قطّة مسكينة وأصبحت هيَ صديقتي.

تحدّثت كثيراً ووبّختني، قالت إنها لن تكرّر الحفلة ما دمت لا أتصرّف بلباقة. رفضت! بالتأكيد سأرفض. ثم متى سآكل الكعك وأتلقّى الهدايا بهذا الكمّ الهائل !

- حسناً، لن أعيد ما فعلت.

مسحت على رأسي. ظننتها ستضربني. لا أتحمّل أن تقترب يد أحد من وجهي. أشعر بأن الجميع يريد أن يلطمني وأني أريد أن أركل الجميع. مللتُ مراعاة ما يريدون وفعل ما يطلبون حتّى يظهروا بأفضل حلّة.

- هند، نحن لا نكرهك ولا نريد أن يتكرر موضوع الضرب مرّة أخرى، اتفقنا أنا ووالدك...
- من، والدي ؟
- فارس.
- تقصدين عمّي..
- اتفقنا أنا وعمّك على أن نعاقبك أو نحرمك شيئاً ما مدّة أسبوع، لكن لن يضربك بعد الآن، لن أسمح له. نحن لا نصدّق بأنك تسكنين معنا، تملئين البيت بوجودك حتّى ولو كنتِ هادئة، على الأقل نشعر بوجود خطوات أحد غيرنا نحن والخادمة.

دائماً عندما تتحدّث معي بهذه الطريقة، أشعر وكأنني أريد احتضانها، أريد تقبيل رأسها، لكنني اكتفيتُ بالمسح على يدها وقمتُ قبل أن تفكّر بما أفكّر به.

أظن بأن وراء هذه المرأة قصّة لا يعلم أحد بها. هي لن تخبرني بها لصغر سنّي. لكن أريد أن أعرف حقاً ما هي قصّتها، ولم لا تستطيع الدفاع عن نفسها أمام عمّي؟ لماذا يضربها ويقوم بتقليل شأنها وكأنه لا شخصية لها.

7

قبل أن أدخل إلى المنزل، عائدة من المدرسة، ركضت إلى الدكان، أخذتُ آيس كريم وجلست على الرصيف إلى أن أنتهي منه. لمحتُ من بعيد الشخص الذي يُسمى مفرح. رميت الآيس كريم وحملتُ حقيبتي وتوجّهتُ الى المنزل بسرعة. قبل أن أصل، كان قد وصل إلي. لا أعرف ما قصّة هذا الرجل الغريب، ولم يخرج هكذا فجأة في حياتي. أيكون هو الذي كان يخرج لي في غرفتي! الرجل القبيح الذي ما أن أفتح عيني حتّى أراه محدّقاً بي؟ لا يُعقل. زدتُ من سرعتي وركضت وركضتُ. حمداً لله أن الخادمة كانت تنتظرني خارجاً، وأن الباب كان مفتوحاً. لو كان مغلقاً، لكان قد قبض عليّ. أردتُ أن أخبر عمّتي بأمره، لكنّني تردّدت، خفتُ أن يمنعاني من الخروج إن عرفا عنه. لن أخبرهما إلا إذا حاول أن يؤذيني.

بعد أن تناسيت كتبي ودراستي وأهملتها كثيراً في الفترة الأخيرة، قرّرت أن أعود لسابق عهدي. أن أكون متفوقة كما كنت. لكنّني أشعر بالثقل عند الدراسة. لم أعد أشعر بالحماس نفسه، ولا حتّى بالفرحة

عندما أحصل على درجات مرتفعة، أو بالحزن عندما أنقص درجة أو درجتين. في الحقيقة، لن أخسر شيئاً، سأقرأ على الأقل.

اليوم، وصلنا لجدول الضرب للعدد سبعة. أحياناً أنسى، وأحياناً كثيرة تجيب طالبة أخرى على السؤال، فتعاود المعلّمة سؤالي. تقول بأنني دائمة السرحان. أقسم بأن عيني تحدّقان فيها أينما ذهبت، و كيفما تحرّكت يداها. لكن، يخونني سمعي غالباً فأرى صورة من دون صوت.

فات وقت الغداء بخمس عشرة دقيقة على ما أظن. كان عمّي قد قال لي أن أعود لمشاركتهما المائدة. سأكون لطيفة اليوم وأذهب لآكل معهما حتّى ولو متأخرة.

أرجعتُ الكرسي قليلاً وجلست. وضعتُ الأرزّ في صحني بكل هدوء. توقفت الملاعق عن الحركة وشعرت أن أحداً ما يحدّق بي. رفعتُ رأسي لأرى عمّتي مبتسمة تراقبني، وعمّي واضعاً ملعقته جانباً وكوب ماء في يده وهو ينظر إليّ.

- هل أكلتُ من أرزّكما ولم تحسبا حسابي؟ حسناً سأرجعه، لستُ جائعة أصلاً.

- لا نحن فقط سعيدان بوجودكِ.

هززت رأسي بعد أن رمقتهما بنظرة تعجب، وتناولت طعامي بسرعة فائقة. لا أحب أن يراقبني أحد ويدقّق بكل تفاصيلي. انتهيت من طعامي، تجشأت وقمت. وبّخني عمّي.

- لا تتجشّئي أمام الآخرين. والذي ينتهي من الطعام يقول الحمدلله.

- الحمدلله.

لم أكن أقصد! تجاهلته. انتظرتهما حتّى ينتهيا من طعامهما ويذهبا لأخذ قيلولتهما فأخرج. أول ما سمعتُ صوت مفتاح الغرفة، ركضت لأرى أشكال الرجال المنهكة وهم عائدون من أعمالهم، يضعون سمّاعات في آذانهم وهم على دراجاتهم، ويستمعون للأغاني والموسيقى والبسمة تملأ وجوههم. يقولون بأن الموسيقى علاج نفسي لهم، من الغربة وصعوبة الحياة. لا أعرف كيف تعالجهم الموسيقى ولا أفهم ما معنى ذلك. لكن نعم، الموسيقى ربما علاج.

ذهبت الى البناية المعتادة. لا أعرف لم أحبّها إلى هذا الحد، مع أنها قديمة ومتهدّمة كأنها خرقة بالية يُمسح بها الأرض، من كثرة البقع عليها والجدار الناقص في بعض الزوايا. جلستُ على الرصيف أتأمل الرجال وهم يدخلون. أحدهم كان غاضباً يصرخ على أصدقائه، رافعا يده. أغمضت عيني فوراً، ثم فتحتُهما بالكاد، كان فقط يدعو الله، كمن يقول: فليأخذكم الله لأتخلّص منكم.

كان هناك آخر بدا مستعجلاً جدّاً، يركض نحو باب المدخل. دقيقتان فقط، ثم خرج وبيده كيس خفيف جدّاً وكأن لا شيء فيه. ظهر ثالث آتياً من بعيد إلى البناية نفسها، أشعة الشمس تغطّي وجهه فلا أستطيع تبيّن ملامحه. اقترب منّي. نعم، ماذا يريد، لم توجّه نحوي؟

أمسكتُ الخشب المرميّ على الأرض بجانبي ورحتُ أمثل بأنني ألعب بالرمل وأرسم عليه، إلى أن اقترب منّي. في الحقيقة، وبرغم

خوفي منه، إلا أني كنت أجده جميل المُحيّا ولا أفهم لم يتسلّل هكذا ويخيف المارّة والأطفال. أيكون يلاطفهم هكذا حتى يختطفهم؟

أتاني وابتسامته تصل إلى طرف أذنه، على خدّه غمازة صغيرة تضيف جمالاً على وجهه. ثم أنه جلس بجانبي وأخذ يرسم على الرمل بإصبعه. لماذا يلاحقني هذا الرجل، وما يريد مني يا عالم ؟

- من أنت ؟
- أخبرتكِ بأن اسمي مفرح.
- لكنّك لا تجلب لي الفرح. لا تجلب إلا الخوف والغضب، إلى اللقاء.
- دعينا نحكي قليلاً.
- لا أريد. لستَ صغيراً كفاية حتّى أتحدّث معك.

تركته ملوّحةً له بيدي وهو يضحك. حقّاً إنه غريب. يجلس معي و يريد التحدث إلي، و ما أنا إلا طفلة لم تتعدّ العاشرة، فيما هيئته تدل على أنه قارب الثلاثين. كلما فعلتُ شيئاً أو قلتُ شيئاً ضحك. يعني الآن مثلاً، ما المضحك في أن ألوّح له بيدي؟ مجنون. من اليوم، سأسمّيه محزناً وليس مفرحاً، كما يقول. المهم أن السيّد محزن تبعني إلى المنزل. حاولت الركض، لكنّني لم أكن بتلك السرعة التي تجعله لا يلحظني. والمنزل لا يبعد كثيراً عن هذه البناية. هو أصلاً يعرف أين يقع منزلي. كان يلاحقني وهو مبتسم، إلى متى، إلى متى ؟

دخلت المنزل واختبأت خلف الباب. انتظرته حتّى يذهب، لكنّه لم يفعل. دخل إلى المنزل المجاور لنا. إذاً هو جارنا!

دخلت المطبخ، كانت عمّتي تصنع كعكة. جلستُ معها أراقبها وأتذكّر فتيات الميتم كيف كن يضحكن وهن يصنعن الكعك ويتشاجرن بالدقيق. سرحتُ مبتسمة. سألتني عمتي عن سبب ابتسامتي المفاجئة. لم أشأ أن أخبرها، لذا قلت لها بأنني أريد المساعدة، حتّى أستطيع سؤالها عن السيّد محزن. رحّبت مهلّلة وأعطتني الخطوات لأبدأ. لم تكن صعبة لأنني كنتُ قد راقبت صناعة الكعك من قبل. سألتها عن الجيران، هل تعرفهم جميعهم أم لا. أجابت بنعم. إذاً ربّما تعرف مفرح. أقصد السيّد محزن. أردت أن أسألها عن اسمه شخصيّاً، وهل هو جارنا أم لا، لكنّني خفت أن تسألني كيف عرفته لأنها تظن بأنني أخرج عصراً كي ألتقي بقطّتي. سأعرف لاحقاً.

الليلة التي وجدتُ فيها القطّة، كانت ما قبل الليلة التي كانوا يحضّرون فيها للحفلة. كانت تتلوّى وتبكي أمام باب المنزل. صوتها يصل إلى غرفتي. خرجت وحدي وأنا أبحث عن الصوت. كانت تقول أنا أتألم، أرجعوني إليّ، أريد أن أعود كما كنت، لكن ما من مُجيب. حملتها وكانت أول مرّة أحمل حيواناً صغيراً. تلمّست بطنها، كان طريّاً وكأنه فارغ، لا شيء فيه سوى الماء. لا أعرف كيف يدخل الطعام إلى فمها. رغم صغرها وصغر أسنانها، أرى عمّتي و الخادمة تضعان السمك أو اللحم أمام الباب، لتأكل. حتّى أنا، أحياناً لا أستطيع مضغ اللحم. حملتها ورحت نحو صنبور المياه الذي تسقي منه الخادمة الزرع. كان الماء بارداً جدّاً. أذكر أنها، حينما رششتها بالماء، صرخت

بأصوات غريبة وقويّة، وكأنها ليست تلكَ التي كانت تبكي منذ قليل. ومن شدّة خوفي ولأنني كنت وحيدة معها، رحتُ أقبّلها وأكررّ على أذنها.

- أنا آسفة، أنا آسفة، لا تقلقي، لن أؤذيـكِ، أنا هنا فقط لأساعدك.

عليها أن تفهم بأنني لم أقبّل قطّة قذرة من غير سبب، أو لأحمي نفسي من مخالبها. وضعتُ خرقة كانت بجانب الصنبور تحتها، ولففتُها بها لحمايتها من البرد، وذهبت أنام. كانت الحادية عشرة والنصف، لم أشأ أن أبقى طويلاً في الخارج، فأصوات الطيور الغريبة تزداد في الليل ونباح الكلاب لا يهدأ ولا يتعب.

منذ ذلك اليوم، أصبحت القطة لا تتحرّك من أمام المنزل، وصارت تُحضر أصدقاءها ليأكلوا معها. كلما خرجت من المنزل إلى المدرسة، أرى القطط تلتف حولي وتتمسّح بي.

أخبرتُ قطّتي أن لا تقلق. إما أن أعلّمها اللغة العربيّة، أو أتعلّم من أجلها لغتها كي أخاطبها كل يوم وأعرف ماذا تريد. مواؤها بات يزعجني وهي تعيد وتعيد، ولكنّني لا أفهم. أشعر بالشفقة عليها. أعتقد أحياناً انها تتألم و تريد أن تقول لي ذلك، لكنها لا تستطيع.

انتهت عمّتي من صنع الكعكة اللذيذة، ثمّ قامت بتزيينها على حسب ما أردتُ أنا. صنعت من عجينة السُكّر ألواناً مختلفة، ثم وضعت القليل من الفراشات والزهور، شمساً صغيرة على الطرف الأيسر، وفتاة

جميلة. أول ما انتهت من وضعها، قمتُ فوراً بإزاحتها وأكلها. كانت تجهّز هاتفها لتأخذ صورة للكعكة قبل الأكل، لكنني لم أتركها تلتقط الصورة. شكل عجينة السكر على الكعك مغر.

ذهبنا لنشاهد التلفاز معاً. كانوا يبثّون حلقة جديدة لتوم وجيري. جلسنا نشاهد ونضحك، ولم نشعر بأننا لم نترك من الكعكة ولا قطعة واحدة لعمّي فارس. همست لي بأن لا أخبره عن الكعكة اليوم، لأنه يحب السكّريات والحلويات كثيراً. ثم ضحكت.

فجأة دخل. تقدّم نحونا خطوات قليلة، ادعيتُ أنني أمضغ الكعك، فقلت:

- الكعك اليوم لذيذ، ليتنا صنعنا اثنين منه.

ضحكت عمتي على خبثي، ثم خرجت معه، وبقيت أنا لأكمل الحلقة.

كانت تُحضّر لي مفاجأة أخرى. لكنها أرادت أن تتأكد من أنها ستفعلها في إجازة هذا الأسبوع، أم لا. أتت مهرولة إلي لتبشّرني بالخبر، بعدما تأكدت من العم فارس.

- هند، هل تريدين غرفة أخرى لتلعبي بها ؟
- نعم، أنا والقطة فقط.
- اتفقتُ مع عمّكِ فارس على أن نفتح الغرفة المغلقة أمام المطبخ هنا، لكِ لتفعلي فيها ما تشائين. وسنقوم أنا وأنتِ بطلائها يوم الخميس، بالألوان التي تريدينها. سنذهب غداً

لنشتريها وسنضع فيها كل ما تريدين. ستكون غرفة الأميرة هند فقط.

لم أصدّق الأمر! سأجرب طلاء الغرفة وسأشتري ما أريد. ارتميت عليها وحضنتها حضناً قوياً، حتى ظننتُ أن عظامها ستنكسر. لكن، لا يهم، أريد أن تصلها فكرة أنني سعيدة جدّاً. لمحتُ وسط سعادتي مع عمّتي عائشة وضحكنا سوياً، أن عمّي فارس كان واقفاً على السلّم يراقبنا. ما أن رأيته، حتى نزلت من حضنها وأكملت حلقتي على التلفاز.

كنت أعد الأيام، منتظرةً يوم الخميس. خرجنا. اشتريت كل الألوان التي أحبها. البنفسجي والوردي، الأصفر، الأزرق الذي يشبه لون السماء، واللؤلؤي كلون الغيم، حتّى أرسم غيمة كبيرة وأتخيّلني آكلها، وأضع كرسياً أمامها وكأنني أجلس عليها. عدنا للمنزل. ارتدينا ملابس قديمة وفتحنا الغرفة و بيدنا أدوات الدهان. أرادت أن أطلي قبلها لأكون أول من يضع يده على جدار هذه الغرفة. أخذت اللون الوردي ومسحت به الجدران بزاوية مائلة. ولأنني لا أستطيع الوصول للأعلى، أحضرت لي الخادمة سلّماً أصعد عليه لألـوّن اللوحة الجداريّة بمخيّلتي. لوّنت عمّتي زاوية واحدة من الأعلى باللون الأزرق السماوي، كي أرسم عليه غيمتي. لكنّني جعلتها تلوّن الجدار كاملاً حتى املأه بالغيم من الأعلى الى الأسفل. وفعلاً هذا ما فعلت، فيما الجانب الآخر كان لخرابيشي أنا، خط ورديّ يقطعه خطٌ آخر

أصفر ويخرج منه في نهايته اللون البنفسجي. وهكذا إلى أن اتسخت ملابسنا بالطلاء، لكن الجدار كان رائعاً. لوحة فنان مبتدئ لكنّه مبدع. سماء صافيَة والغيم يضع نقاطاً متفرّقة على صفحتها، وعلى الجانب الآخر ألوان متداخلة كأنها وجه امرأة تمّ لطمها فتحوّلت ملامحها إلى بقعٍ بنفسجيّة وحمراء. أكملنا. أربع ساعات ونحن نلوّن ونصبغ ونطلي ونرسم. لم أتعب، كنتُ متحمّسة كثيراً، لهذا أول ما انتهيت لحقت بعمّتي لأصبغ جسدها ووجهها. كانت تصرخ وتضحك وتقول بأن الطلاء لا يمحى حتّى بالصابون. جرّبت بقعة صغيرة على يدها، ثم لوّنت قميصها والباقي من ثيابها. استمتعتُ بهذا اليوم أكثر من استمتاعي بالحفلة، وحتّى أكثر من أي شيء آخر في الدنيا حصل لي.

ركضتُ الى غرفتي لأغيّر ملابسي وأخرج فأخبر القطّة. و أنا في طريقي للنزول وأنا أغنّي وأصرخ من الفرح، تعثرت ووقعت من الدرج. انكسرت قدمي وبكيتُ كثيراً من الألم. رأيتُ عظامي والدم الغزير الذي خرج منها. كنت أصرخ حتى سمعني كل من في أبوظبي. حملني عمّي وتوجهنا إلى المستشفى بسرعة. لم تجلس عمتي عائشة في الكرسي الأمامي، كانت تجلس بقربي وتبكي مثلي. كنت أسكت قليلاً حتى تختفي الدموع من عيني، لأراها إن كانت حقاً تبكي أم لا؟ لكن أنا من وقعت وأنا من تتألم، فأعاود البكاء بعدما أتأكد.

دخلنا فوراً عند الطبيب المُعالج. كلما اقترب منّي صرخت في أذنه، حتى يبتعد. أعلم بأنني سأتألم أكثر مما أشعر الآن. فجأة، رأيتني

مُحاطة بمجموعة من الطبيبات اللواتي اجتمعن كي يمسكن يدي وقدمي حتّى لا أركل الطبيب وهو يعالجني. الألم هذا مثل الصخرة الكبيرة التي تقع من أعلى الجبل على رأسك. بالضبط، بمثل هذا الألم أشعر. لفّ قدمي بجبيرة من الجبس لتثبيت العظم المكسور وعدنا للمنزل. لن أستطيع الخروج الآن وحدي لمدّة شهرين! هذا كل ما اهتم به.

زاد اهتمام عمّتي عائشة بي. أصبحت تنام في غرفتي، معي، تحملني لأستحم أو لأقضي حاجتي. في البداية لم أكن أدعها تفعل ذلك لأنني كنتُ أخجل منها. لكن عندما أتعبني الأمر، تركتها تفعل. وصلتني الكثير من الهدايا لسلامتي. لم أذهب الى المدرسة لأسبوعين كاملين. كنت أعيش سعيدة، لكن لم تكتمل فرحتي بسبب عجزي عن الحركة. مضى الأسبوعان بسرعة و أصبحت أذهب إلى المدرسة مع سائق خاص يوصلني إلى فصلي. اقتربت من عمّتي أكثر. خفت أن يوبّخني عمّي على الجري في ذلك اليوم على السلّم، لكنه لم يفعل. يقول بأنه حدث صدفة ولم أكن أقصد. بالتأكيد لم أكن أقصد، من يريد أن يكسر قدمه و يموت تحت يد الطبيب !

اعتنت الخادمة بالقطّة وأصدقائها، فيما كنت أمضي أغلب وقتي على الأريكة أشاهد التلفاز، أو في غرفتي نائمة. قرّرت أن استسلم لهذا الأمر، إلى أن أزيل هذا الجبس عن قدمي.

وأخيراً جاء اليوم الذي انتظرته شهرين كاملين. ذهبنا جميعاً

للمشفى. أول ما وضع الطبيب الآلة التي ظننتُ أنه سيجز بها رجلي، شتمته وصفعته. صرخ عمّي فارس علي أمامه، قال بأنني غير محترمة وسيقوم بتأديبي في المنزل. أتمنّى أن لا تكون صفعة ثانية.

- لن تشعري به، أعدكِ بذلك.

أغمضتُ عيني وضعتُ يدي في أذني حتى لا أسمع الصوت، إلى أن انتهى. حرّك قدمي قليلاً، للأمام والخلف. قبضة يده قويّة وبمجرد أن يلمسني أشعر بالألم. أشعر وكأنه يعصرني عقاباً لي. أنا أيضاً أستطيع معاقبتك. لم أنس أنك، يوم وجعي، جعلت الجميع يمسك بي كأنني مجنونة. قلت لعمّي وعمتي أن ينتظراني في السيّارة لأني سأشكر الطبيب وحدي وأخجل أن أتحدّث أمامهما. ذهبا. كنت أتحدّث معه و أسألهُ عن قدمي وهل سأستطيع المشي مجدّداً كما كنت، والجري أم لا. قال نعم و هو يتوجّه إلى كرسيّه خلف الطاولة. هذه فرصتي. الآن أستطيع معاقبته. ركلته على مؤخرته وكم تمنّيت أن أفعل مثلما أرى في الرسوم المتحرّكة.

هذا جزاء من يؤلمني وهذه هي طريقتي للشكر. مع السلامة.

ركضت نحو السيارة. شعرتُ بقليل من الألم، لهذا وقفت قليلاً لأرتاح ثم مشيت إلى أن وصلت. لم أخبرهما بما حدث، لكنّني كنتُ أضحك. أتمنّى أن لا يخبرهما الطبيب بما فعلت. وصلنا إلى المنزل ودخلتُ فوراً إلى غرفتي. تلمّستُ الجدران الملوّنة. لقد جفّت. لم أدخلها منذ ذلك اليوم. غداً أخبرهما بأنني أريد أن أشتري منزلاً للقطة

وبعض الألعاب لي لأضعها هنا. ذهبتُ إلى غرفتي وأنا حذرة من أن أقع مرّة أخرى، ثم نمت. الآن أستطيع التقلّب والتحرّك كيفما أريد. الآن سأنام وحدي وأرتدي ملابسي الداخلية من دون أن يلبسني إياها أحد، أو يأخذني لأقضي حاجتي.

8

كلّما تقدم بي الوقت هنا، أدركتُ بأنني أستطيع أن أُساعد نفسي، ولو بالحيلة. فلا الناس ستدوم لي، ولا حتّى هذه العائلة. مصيري أن أخرج عن رعايتها، كما أخرجتني عائلتي من منزلها. عليّ أن أتعلّم من كل شيء حولي، من النمل، من القطط، من كل شيء.

استيقظت من نومي بعد الظهر مثقلة، لم أنم مرتاحةً هكذا منذ شهرين. اشتقت إلى قطّتي، أريد أن أراها. لم أغسل وجهي ولم أغيّر ملابسي، هبطتُ السلالم مسرعةً إلى المطبخ أبحث عن الخادمة، لكنّني لم أجدها. ذهبت إلى المُلحق. دخلت غرفتها ولم أجدها أيضاً. أكرهُ أن أصرخ فور استيقاظي، أو حتّى أن أتحدّث. أشعر بأن حلقي جاف جدّاً كأرضٍ قاطعها المطر والشجر منذ دهر. ملتُ برأسي أمام باب الفيلا، مُتحاشيةً ضوء الشمس الذي جرح عيني بقوّة أشعّته. قد تكون في الخارج تُطعم القطط وتسقي الزرع. نعم، ها هي. أول ما اقتربت، أتت قطّتي إلي تتلمّس قدمي بعد أن أزحتُ الجبيرة عنها. نزلتُ إلى مستواها ومسحتُ على جسدها. أصبحت ممتلئة الآن أكثر من ذي قبل. لابدّ أن الخادمة تهتم بها جيّداً، أو أن طعامنا دسم.

جلستُ على أحد الكراسي الموجودة في الحديقة، أتأمل القطط وهي تأكل الطعام المرمي لها على الأرض. وقتَ الطعام، تتشاجر في ما بينها حتّى يحصل كل منها على حصّته. تسحب قطتي قطعة اللحم بلسانها وتبتعد قليلاً حتّى تهنأ بطعامها. تُخرج لسانها بسرعة تلحسُ اللحم وتقضم قطعةً صغيرة بأنيابها المرتّبة الصغيرة الحجم. أتعجّب من بياض أنيابها، فبرغم كل ما تأكله من قاذورات في الشارع، هي لا تتسوّس ولا تصفرّ.

انتهت من حصّتها. لا تزال جائعة. تذهب لتبحث عن قطعة أخرى تسرقها من فم الجنود الذّين دخلوا المعركةَ حديثاً، يتشاجرون ويصدرون أصواتاً مخيفة. تتراجع الخادمة قليلاً بعد سماعها هذه الأصوات، تأتي لتجلس بجانبي وتراقب هيَ الأخرى بصمت. سألتها إذا ما كانت خلال المدّة التي قضتها معها، قد تعلّمت لغة القطط؟ لكنها كالعادة، لم تفهمني. لا شيء، لا شيء، قلتُ لها وذهبتُ لأغسل وجهي.

تركت القطط تأكل وتستمتع بما لديها، ودخلتُ المنزل. قابلتني عمّتي عائشة تسأل عن قدمي. هي لا تؤلمني الآن، فقط أحياناً إذا ركضتُ أو مشيتُ بسرعة. الحمد لله، قالت. صعدت إلى غرفتي لأغسل وجهي وأغيّر ملابسي. وجدتُ علبة حذاء جديد على سريري. لم أعرهُ اهتماماً. وجّهتُ نظري نحو الحمّام وتوجّهتُ إليه. رششتُ الماء على وجهي، غيّرتُ ملابسي، ونزلتُ مرّة أخرى. قلت لعمّتي

أنني وجدتُ علبة على سريري، وإن كانت قد دخلت غرفتي لتفعلَ شيئاً ونسيت أن تأخذها معها. أجابت بأنه حذاء طبّي جديد حتّى لا تؤلمني قدمي. شكرتها واستدرت كي أخرج. ظنّت بأنني ذاهبة إلى القطّة، ابتسمت لي وقالت:

- لا تركضي مع صديقتك كثيراً.
- حسناً.

أصلاً، لقد ذهبتُ إليها قبل قليل، والآن أنا ذاهبة خارجاً. أريد أن أُحرّك رجليّ قليلاً، أمشي إلى ما لا نهاية.

خرجت، بعد أن ذهبتُ لأخبر الخادمة بأن لا تُخبر عمّتي بأنني سأخرجُ من المنزل.

المشاهد التّي تمر من أمامي هيَ نفسها. يخرج هذا من عمله ويذهب ذاك إلى منزله ويتشاجر هذا مع صديقه. الروتين لا يتغيّر. لا شيء يتغيّر هنا في هذا البلد. لا أعرف لم تستهويني هذه الأماكن، رغم قذارتها وخطورتها. كان مفرح قد قال لي بأنه من الممكن أن يختطفني أحد، أو يحدُث لي سوء، إذا تكرّر مجيئي إلى هنا.

ذهبت إلى مكان مختلف هذه المرّة، لعلّي أكتشف شيئاً جديداً يجعلني أحبّ الخروج والاستكشاف أكثر. قريبٌ من الطريق الصحراويّ الطويل المؤدي إلى المجهول الذي عندما هربتُ أوّل مرّة، كنتُ في اتجاهه. حاولتُ أن أصل لنهاية الطريق، لكن لا نهاية له. الطريق طويلة، والوقت يمضي، وعليّ أن لا أتأخّر حتّى لا يصل عمّي فارس ويهديني لطمةً محترمة على وجهي.

مرّت، أعتقدُ، نصف ساعة. الشمسُ قاربَت المغيب، اختفى اللّون الأزرق من السماء ومال تدريجياً إلى لونهِ الأفتح، ثم إلى الوردي، فالبرتقاليّ. كاللوحة المعلقة في دار عمتي عائشة، قالت إنها لرسّامٍ أجنبي نسيت اسمه، شخبَطَ على لوحته وكأنه يُلقي بغضبه كلّه عليها، فجنّ الناس لجمالها. أجزم أنني أستطيع رسم ما هو أجمل منها. خطرت لي العودَة، أحتاج نصف ساعة على الأقل للرجوع. آمل أن لا أضيع. ومع ذلك، أكملتُ التقدم على الطريق. أريد اكتشاف أشياء جديدة... مهلاً، لم يسبق لي أن رأيتُ هذا الكم من الجرذان والذُباب مجتمعة في مكان واحد. المكان هذا نتن. اقتربتُ لأرى ما يحدث، فعلاً إنه نتن ومُقزّز. رفعتُ طرف قميصي لأصنع منه كمامة وضعتها على أنفي وفمي، وحاولتُ اختلاس النظر. آه، نعم، لقد حصلت الجرذان على فريسة. إنها تتشاجر على أرنبٍ ميت متعفّن. أظنها وصلت إليه بواسطة رائحته. إنها حقّاً كريهة.

أكملتُ مسيري. لا توجد حتّى طُرقٌ جانبيّة كي أعرف على الأقل إلى أين يأخذني هذا المشوار. شعرتُ بالعطش فجأة. توقّفتُ قليلاً بجانب أحد الكُثبان الرمليّة. ملامح الشمس قد اختفت، معلنةً عن اختبائها خلف البحر، فتحوّلت السماء إلى لون شعرِ فتاة تعيشُ في الباديَة، سوادهُ حالك كلون عينيها. ثم ظهرت النجوم وبان بريقُها. لقد حلّ الليل. علي أن أسرعَ حتّى لا ينتبه لغيابي عمّي، وقبل أن تُخبره الخادمة بخروجي.

المشكلة أن الطريق يتشابه، لا لوحة تدلّ على أنني اقتربتُ من منزلي، ولا حتّى أيّة وسيلة نقل تمر لأسألها. سأتقيّأ. كيف أعود؟ معدتي تؤلمني ولا أقوى على الحراك، كأنها تقرصني من كل جانب وتعاقبني على ما فعلت. أضع يدي على خصري من الجهة اليمنى، فتقرصني عند سرّتي، أضعها هناك، فتركض لتقرص خاصرتي اليُسرى. أرجوكِ، كُفّي عن ذلك ودعيني أعود إلى المنزل بسلام.

مشيتُ ومشيت، ولم أصل. أشعر وكأن باطن رقبتي، من شدّة جفافه، لزج. أجد صعوبة في ابتلاع ريقي. أنا أستسلم الآن. سيخرجان ليبحثا عنّي. سيتفرّقان، أحدهما إلى الشمال، والآخر سيتوجّه جنوباً للبحث عنّي. سيجدانني. سأجلس وأنتظرهما هنا.

بدأتُ بالعد حتّى أعرف كم من الوقت مضى. وصلتُ إلى مائة، ولم يأت أحد بعد. فجأة لمحتُ رجلاً يمشي من بعيد، وقفتُ لأركضَ باتجاهه. عمّي فارس، عمّي فارس، أنا هنا، أرجوك لا تضربني، لن أخرج مرّة أخرى.

لا جواب منه ولا التفاتة. يمشي متبختراً متكبّراً كأنه لم يستمع لندائي. ركضتُ نحوه وهذه المرّة أسرع، إلى أن بانت ملامحه. إنه ليس عمّي. أخشى أن يكون هذا الرجل الذي يلاحقني منذ أن أتيت إلى هذا المنزل. الرجل الأشعث الشعر، القبيح. من أنت؟ لم يرد عليّ إلى أن وصل بجانبي. لقد عرفتك، إنك السيّد «محزن». أنا أكرهك، أنت تعلم ذلك، لكن إن أوصلتني إلى منزلي، سأحبّك، اتفقنا؟ أمسك بكتفي بقوّة وجرّني نحوه.

- اسمعيني جيّداً، أيتها الصغيرة. أخبرتك سابقاً عن خطورة هذا المكان، وأنت إلى الآن لا تستمعين إليّ ولا تأخذين ذلك بعين الاعتبار. هل أنت مجنونة؟
- أنتَ المجنون.

رصّ على يدي بقوّةٍ أكبر، وتابع يقول:

- لستُ والدكِ ولا تهمّني فتاة شقيّة مثلك، لكنّني كنتُ أتبعكِ منذ أن بدأت تمشين إلى هذا الطريق. كنت أعلم بأنكِ ستضيعين، لهذا أنا أحذّرُكِ، لن تأتي إلى هنا مجدداً وإلا...
- اسمع، لا تُهدّدني، خُذني إلى المنزل.
- مختلّة.
- مجنون.

أراح قبضته وأمسك بكفّي ليوصلني إلى المنزل. مشينا وفكرت بأني تصرفت بشكل غبي. رفعتُ رأسي قليلاً لأرى وجهه، لم يكن غاضباً كما كان، لقد هدأ. الآن فرصتي لأن اعتذر قبل أن يغضب مجدّداً.

- أنا اعتذر، لقد أخطأت.
- جيّد.

رمقتهُ بنظرة، أنا اعتذر الآن، فقل قبلتُ اعتذارك، أو أي شيء آخر، بدلاً من جيّد. مُغفّل. تجاهلته إلى أن وصلنا إلى أحد الدكاكين وأخذ لي أيس كريم بالفانيلا. ثم أوصلني إلى المنزل حتّى يظنوا بأن تأخيري كان بسبب الآيس كريم.

شكرته، ثم دخلت. لم يسألني أحد أين كنت. دخلت وأنا أتلذّذ في أكل البوظة. كان عمّي يشاهد الأخبار مع عمّتي. خفت أن يشتمني ويتلقّفني بالكلام السيّئ، لكنه لم يفعل. كان مندمجاً جدّاً بالمشاهدة. دخلتُ غرفتي من غير أن أُلقي عليهما السلام. انتهيت من تناول الآيس كريم، رميت ما بقي منه في سلّة القمامة بجانبي، ثم ذهبتُ لأغيّر ملابسي. رائحتي أصبحت كرائحة ذلك الأرنب المُقرف. ليس لديّ القدرة على الاستحمام، جسمي متعب. ارتديتُ بيجامتي ونمت بعد هذا اليوم الطويل جدّاً، رغم أنه لم يطل إلا بين العصر والمغرب.

9

استيقظت ورأسي كصخرةٍ وقعت من جبل لا أقوى على حملها، وعيني نصفها مغلقة. كانت لا تزال الثالثة والنصف فجراً. جيد، سأنام حتّى يخفّ وجع رأسي. أتمنى أن لا يأتي أحد لإيقاظي، أن أُكملَ نومي فلا أفيق إلا بعد الظهر.

هل يُعقل أن يكون مفرح والدي؟ أم أنه ملاك مُنزلٌ من السماء كي يحميني ويحرسني؟ لم هذا الاهتمام والظهور المُفاجئ، من يكون؟ كيفَ عرف أنني ضعت، بل حتّى كيف عرف مكاني؟

جاء الصباح وأيقظتني عمتي عائشة وذهبت إلى المدرسة والأفكار لم ترحل عني. أفكّر بالرجل المعجزة الذي، ما أن أكون في خطر، حتى يظهر وينقذني. هل هذا ما يسمى بحدس الوالد تجاه أبنائه؟

أمضيت معظم وقتي في المدرسة وأنا أفكّر بالأمر، حتّى قرّرت أن أذهب فورَ عودتي، إلى البقالة المجاورة حتّى ألتقيه وأسأله. فإن كان حقّاً أبي، سألقّنه درساً قاسياً، سأضربه وأركله وأفعل كل ما بوسعي حتى أنتقم، ثم أضمّه ضمّة الطفل الجائع لصدر أمه ليعلم بشوقي وحنيني إليه.

نزلتُ من الحافلة. حاولتُ أن لا تراني الخادمة وأنا أترجّل. ركضت نحوَ أحد الممرّات الضيقة المؤديّة إلى تلك البنايات القديمة، وجلستُ أنتظر وأنتظر. أنا أعلم أنه سيأتي. وأتى فعلاً. كُنت لطيفة. حدّثته بلطف وطلبت منه أن يتحدّث عن نفسه. من هو وماذا يريد. لكنه لم يفعل! اكتفى بالضحك وقام من مكانه.

- اسمع، لقد كنت لطيفة معك. عليك أن تكون لطيفاً وتتحدّث معي بلباقة.
- اسمعي، أنا أيضاً لطيف، لكنك لن تفهمي شيئاً مما سأقوله، لهذا اهتمّي بشؤونك الخاصة وواجباتِكِ، يا صغيرة.

مجدّداً يا صغيرة؟ لقد قال يا صغيرة، ألا يفهم؟ ما الصعب في الموضوع، لم لا يستطيع أن يتحدّث وينتهي الأمر.

- حسناً، سؤال أخير، هل أنت متزوّج؟
- لا.
- ألم تنجب زوجتك فتاة؟
- كيف تنجب زوجتي وأنا لم أتزوّج بعد؟

فكرّت قليلاً، يجب أن أحتال عليه حتّى أعرف إن كان أبي. ابتسمتُ فجأة ومددتُ له يدي.

- أنصبحُ أصدقاء؟
- نعم، نحنُ أصدقاء.
- إذاً عربون صداقتنا هو أن تحكي لي قصة جميلة قبل أن أعود إلى المنزل.

وبدون أن أتيح له أن يحكي كلمة واحدة، وضعتُ رأسي على فخذه ووجّهتُ وجهي نحو عينيه، وانتظرته. ضحك وهز برأسه، ثم أخبرني قصّة أسطوريّة. إنه ماهر، وهو يعرف كيف يروي القصص أيضاً.

عدتُ إلى المنزل عند الرابعة عصراً، كان هادئاً على غير عادته. لا صوت أخبارٍ ولا قنابل، ولا صوت أدوات في المطبخ. مشيت على مهلي خشية أن يكونا نائمين فأوقظهما. لكن، لا. كانا ينتظرانني في الصالة العُليا، عمتي تهزّ ساقيها وتعضّ على أظافرها، وعمّي يتمشى غاضبا جدّاً لعدم حضوري إلى المنزل.

ما أن رآني، حتى وبّخني قائلاً بأنه من الخطأ أن لا أعود فوراً بعد المدرسة، لأن ذلك قد يتسبب في مشاكل لا حصرَ لها، للمدرسة أولاً لإهمالها إن كانت المسؤولة، ومن ثم لي. فكّرت أن العقاب لا يفيد معي، وأنه سيضربني مجدداً، لذا أسرعت لأندس خلف عمّتي عائشة، مغمضةً عيني بكلّ قوتي. صمت عمي مقطّب الحاجبين لثوان، ثم خرج.

عمتي أيضاً لم تتحدّث، اكتفت بنظراتها إليّ، ثمّ تبعته إلى الغرفة، وكأنها تقول إلى متى هذه التصرفات؟ إلى متى وأنتِ تجعلين عمّك يغضب هكذا كل يوم؟

أشعرُ بالأسى على نفسي وعلى ما وصلت إليه. أنا لا أقصد، بل إنها أمور تحدُث من تلقاء نفسها، تقرر أن تحدث فتفعل. دخلتُ غرفتي،

حفرتُ لنفسي في وسط السرير وكأنني فأر أمسَكت به المصيدة، يتلوّى تحتها من شدّة الألم، لا يستطيع الحراك أو أن يُبدي رأيه في ما يُريد. إنني أتمزّق في داخلي. يعتقدون أنني لا أعرف طريق الابتسامة، لكنّهم لا يدركون بأن لي ابتسامةً بريئة جميلة تُفرح كلّ من رآها مُرتسمةً على وجهي. يظنّون بأنهم يفعلون الصواب، لكن لا، هم لا يقتربون منه حتّى. إذا أرادوا أن يتقربوا منّي، عليهم أن يجلسوا معي لنُقرّر هل قلبي يرتاح لهم، قبل أن يرتاحوا هم لي؟ أهي العائلة التي أحلم بها، وهل يجب أن يعاملوني كملكة وأنا لستُ كذلك! ربّما كان كل ما أريده هو أن يُعيدوني إلى أخي، أو أن يتركوني وحيدة.

تذكّرت الشموع التي اشتريتها منذ أسابيع. أخرجتها من الدرج، استعداداً لإقامة الطقوس التي كنتُ أعيشها مع عيسى، في مُلحق منزِل الجدّة مريم. خرجتُ من غرفتي إلى غرفة الخادمة، وأنا أركض. بحثتُ عن ملاقط الغسيل، وجدتها في كيس من القماش حملته وعدتُ به إلى الغرفة.

رفعتُ غطاء سريري وصنعت به خيمة مُثلّثة علّقتُ أطرافها بواسطة الملاقط، بالستائر التي خلفي، ووضعتُ أطراف الغطاء خلف الطاولتين بجانب سريري، وكأنهما الوتد الذي أثبّتُ به خيمتي. أحضرتُ الشموع من خزانتي وأحضرت علبة الكبريت. أطفأتُ جميع الأضواء، وجلستُ مستندةً إلى ظهر السرير، بيدي الشمعة أُشعلها وأرسم الأشكال وأصنعها، على أطراف جُدرانها التي تشفّ عما

وراءها. طارت الحمامَة. جاء الأرنب. رأسي ذو القرنين، والكثير من الحكايات هنا على الجُدران، مرسومةٌ باللون الأسود.

كنتُ أجلس خارج الخيمة، عندما كنت ألعب مع عيسى. يرسم لي أشكالاً وأتوقعها، فإن أصبت، يكون دوري في أن أدخل الخيمة قد حان. يخرج هوَ، وإن أخطأت، يُكمل فوازيره.

اليوم، أنا هُنا وحدي، أحكي حكاية العصفور والأرنب الخائن الذي أراد أن يصبح صديقه، فالتهمه الأخير. أرسم بيدي وأتحدّث لمن يسكن الغرفة معي، الذُباب الذي دخل من النافذَة وضلّ طريق الخروج، والنمل الذي أتى ليستحوذ على حصّته من الحلويات التي آكلها على سريري. لعبتُ كثيراً، حتّى تعبت.

دقّت الساعة السابعة والنصف مساء، أطفأت الشمعة وأزحتُ الغطاء عن الستائر، ثم ذهبت الى المطبخ أتنقّد ما يكون العشاء. أكلت قليلاً، ثم عدتُ إلى الغرفة لأنام.

كالعادة، أتت عمتي عائشة لتتفحّصني قبل أن تنام. رتّبت فراشي وأسدلت الستائر، قبّلت جبيني وخرجت. فتحت عيني واعتدلتُ في نومتي لأقابل السقف. حدّقتُ فيه، إلى أن نمت.

10

مرّ الأسبوع، كما الذي قبله، وكما الذي قبله وقبله. لا شيء يتغيّر.

يوم الخميس. حصّة الرسم.

كي نتخلّص من الخوف، يجب أن نواجهه. هكذا بدأت المعلّمة حصّتها اليوم، ثم طلبت منّا أن نرسم أكثر ما يُخيفنا، أي ذاك الذي نُفكّر به قبل أن ننام مثلاً، فنخشى أن يأتينا عندما لا يكون معنا أحدٌ في الغرفة. شَرعَ الجميع في الرسم، ما عداي أنا. لم أعرف صدقاً ما هو الشيء الذي أخاف منه أكثر، إذ أنه لم يكن شيئاً واحداً. اعتقد أنني أخاف من الكثير، لهذا تركتُ الورقة بيضاء كما هيَ، ورُحتُ أتأمّل رسومات زُملائي في الفصل.

رسمَ أحدهم مطراً. سألته المعلّمة متعجّبة: كيفَ تخافَ المطر؟ أجابها بأن له أخاً مات من البرد، في ليلة اشتدّ فيها السيل وهطول الأمطار. فكرتُ أنه يخافُ المطر كطفلٍ يتيم ملابسهُ رثّة ممزّقة، يسعده التواجد واللعب تحتَه، لكنّه يخشى المرض. رسمَ آخر كلباً يسمع نباحه كلّ ليلة ويخاف أن يهجُمَ عليه بأنيابه، يقطّعه أشلاء، فتبكي أمّه لفقده.

عُدت لورقتي، رسمتُ رجلاً شاهقاً كالجبل، يداه كالغُصن

الطويل ممدودتان نحو طفلَةٍ صغيرَةٍ رأسها يقبّل الأرض من شدّة الخوف. الموقف لا يزال يدور في رأسي وكأن أحداً قام بنحته كي لا أنساه أبداً، كمسمارٍ ثابتٍ لا أستطيع اقتلاعه، أصلهُ ثابتٌ وفرعهُ في الذاكرة. تشوّش ذهني بعد أن انتهيتُ من الرسم، تلفت أعصابي، خفتُ من أن تشاهد المعلمة رسمتي، فتوصلها إلى عمّي. أمسكتُ اللون الأسود ورحتُ أرسم خطوطاً عشوائية كي لا يُرى من الرسمة شيء. لكن المعلمة كانت قد مرّت وأنا في كامل اندماجي وشاهدت ما رسمت. توالت الصور في رأسي. سيعرف عمّي بالأمر، سأتعرّض للصفع مجدّداً، لن يتركني هذه المرّة، دائماً ما كان يردّد على أذني بأنني فضيحة وأنني لا أستحق أن أحمل اسمه، لأني دائماً أجلب العار له ولعائلته بسبب مصائبي المتكرّرة التي لا تنتهي.

أتت المعلمة وقالت من هذا وما معنى هذه الصورة؟ كنتُ مدركة تماماً بأنني قد وقعتُ في مشكلة، وأنني لن أستطيع الخروج منها بسلام. بلعتُ ريقي وأجبتها بأنه عمّي وأخاف من أن يصفعني، لهذا رسمته، كي لا يعود ويقوم بالأمر. فتحت عينيها غير مصدّقة! كيف يتجرّأ شخصٌ كبير عاقل بأن يمدّ يده على فتاة صغيرة؟

انتهت الحصّة وذهبت المعلمة مباشرة إلى الأخصائية الاجتماعية لتطلبَ منها رقم والديّ. اتصلت بهما، تحدّثت مع عمّي فارس وقالت له محذّرةً:

- ابنتكَ يا أستاذ فارس، تعرّضت للضرب من قِبَل عمّها كما

تقول. أرجو أن تفعل ما يلزم، من الخطأ جدّاً أن تُضرب فتاة بعمرها.

أجابها عمي فارس متلعثماً:

- حسناً، سأرى ما في الأمر.

عادت إليّ المعلمة وأعلمتني بأنها تحدّثت إلى والدي، وطمأنتني أن كل شيء سيكون بخير. لم تُتعب نفسها في قراءة ملفّي، لتعرف أصلاً بأنني لستُ ابنته! وليسَ لي أبٌ ولا عمٌ أصلاً.

ركبت الحافلة متوجّهة إلى المنزل. بعض الطلاب يتثاءب يريد النوم، والبعض الآخر لا يزال في كامل نشاطه يلعب ويتحادث. كنتُ خائفة من دخول المنزل، لأني لم أستطع توقّع ما سيحدث. كُنت شاردة طوال الطريق، أفكّر بما قد يفعله بي عمي بعدما أخبرت المعلّمة بأنه ضربني.

أمام مدخل المنزل، وضعتُ قدمي على العتبة، متحاملةً على نفسي، خوفاً من أن أُرمى إلى الخارج. خفضتُ رأسي كي لا أرى شيئاً ولا أواجه أي شخص. مشيتُ فوق البلاطات، أعدّها الواحدة تلوَ الأخرى، إلى أن وصلتُ غرفتي. وقبل أن أدخل، رفعتُ رأسي قليلاً كي أرى إن كان ثمة من ينتظرني كي يُلقي عليّ محاضرة. لكن، لا أحد. تنهدّتُ بعد أن شعرتُ بالراحة، على الأقل، لن اضطر إلى سماع أي لوم أو تعنيف الآن.

ولجتُ الغرفة، فإذا بالعم فارس يجلس على سريري ويمدّ رجليه

على أريكتي. تسارعت نبضات قلبي. لماذا لا تأتي عمتي عائشة كي تُدافع عنّي اليوم أيضاً؟ تراجعتُ قليلاً وأنا أنوي الهرب، لكنّه ناداني. أمسكتُ بمعدتي قبلَ أن تبدأ بعويلها، ومسحتُ بيدي الأخرى على وجهي وعينيّ. أراد أن يتحدّث عما حصلَ اليوم في المدرسة.

- اسمعي هند، سأقول لك الحقيقة وأظنكِ تدركينها. لقد مللنا المصائب التي تقع على رؤوسنا بسببك. أنا لا أريد ضربك ولا مُعاقبتكِ، لكنّكِ تجبرينني على ذلك. وبما أنّك أخبرتِ مُعلّمتكِ اليوم، فيجب أن نتحدّث بمفردنا قليلاً، إذ لا يعقل أن نتجنّب الحديث معاً فنعيش في صراعٍ بين الوقوع في المشاكل والخوف من الضرب. ما أريد أن أوصلكِ إليه هوَ أنني لا أريد ضربك ولا أتمنّى ذلك، لكن دعينا نتّفق على أن تلتزمي بقواعد هذا المنزل، وأن لا تتسبّبي بمزيد من المُشكلات. في المقابل، في نهاية كل أسبوع، أهديكِ هديّة تختارينها بنفسكِ ونخرج معاً لشرائها، ما رأيك؟

كل هذا الحديث والهدايا، ولا أوافق؟ من المجنون الذي قد يرفض أصلاً؟ بسرعة، هززت رأسي موافقة، وأردفت:

- لكن لا تضربني بعد الآن، أرجوك، ولا تصفعني.

ابتسم ابتسامة دافئة ومسَحَ على رأسي، ثمّ خرج.

- سيحدُث ما تريدين.

ما أن أغلق الباب وراءه، حتّى ارتميتُ على سريري مطلقةً تنهيدة

طويلة، لا أصدّق بأنني كنتُ وحدي معه! وأننا تحدّثنا معاً. أظن بأنني أخطو خطوة جديدة في هذا المنزل... لا يجب أن يكونوا لُطفاء هكذا معي، لا يجب أن أحبهم. سأنهار إذا ما تركوني. سأذوبُ واقفةً، يسيل جسدي على الأرض، ولن يُرى رأسي من قدمي!

فسختُ ملابس المدرسة عني وبقيتُ بملابسي الداخلية. فتحتُ المُكيّف ورحتُ في نوم عميق، وجميل أيضاً. لأول مرّة، أنام بعد المدرسة وأنا أشعر بهذه الراحة!

طيرٌ يسبحُ في حوض الأسماك، قرشٌ يلتفّ حولَ الغوّاص كالأسلاك، زهرٌ يطيرُ في السماء والأفلاك، وحروفٌ تبحثُ عن ملجأ تبيتُ فيه بين الأوراق. هكذا كُنتُ أحلم. كنتُ مبتسمة على ما أعتقد، وأنا مُغمضة العينين. لم أودّ أن أستيقظ. أعجبني تبادل الأدوار هذا بين مختلف الكائنات، والغوص في عالم الخيال بلا خوفٍ من أي شيء يُمكن أن يقتلع سعادتي. طوال الشهور التي أمضيتُها هنا، لم أحلَم قطّ بشيء أسعدني أو أنعم عليّ بنوم هادئ كهذا. إنها المرّة الأولى التي يحدُثُ لي ذلك!

استيقظت من نومي سعيدة، حتّى أنّني نسيتُ نفسي فخرجتُ بدون أن ألبس ملابسي، وتوجّهتُ إلى غرفة عمّي وعمّتي ودخلتها لأوّل مرّة، منذ أن وطأت قدماي هذا البيت. لم تكن الشمس تُرسل أشعتها إلينا، لهذا توقّعتُ أن يكون الوقت ما بينَ المغرب والعشاء. لا أعرف لم ذهبت إلى غرفتهما. ليسَ لديّ حاجة ولا خانَة. هي عادة

قديمة تولّدت لديّ، حين أحلَم بشيء جميل، أتوجّه إلى غرفة أمي سارة لأقبّلها وأخبرها بما حلمت.

وقفت في وسط الغرفة، بعد أن تذّكرت بأنني لن أحكي لأمي سارة ما رأيت، وأنها لن تأخذني في حضنها مرددةً بأنني إن أردتُ ذلك سيحدث. هممت بالتراجع قبل أن تلاحظني عمتي عائشة، لكنها رأتني، فقامت لتأخذني إليها، لكنّني رفضت وتجاهلتُها، عائدة نحوَ غرفتي وأنا ألوم نفسي على ما فعلت. إلى متى سأتجنبهما، يا الله، إلى متى؟

الساعة الثامنة والربع. العشاء جاهز. نزلتُ السلالم وجلست إلى الطاولة معهما. تناولنا العشاء بصمت، ثم تناقشا قليلاً بأمور العمل وعائلتيهما، وأنا صامتة، أوجّه نظراتي تارةً نحو عمّي، وتارةً نحو عمتي، وفمي ممتلئ بالطعام. انتهيت قبلهما، فرحتُ الحمام أغسل فمي، ثم رجعتُ إلى غرفتي.

أخرجتُ شموعي وجلستُ ألعب وأحكي بها الحكايات لنفسي، حلّقتُ في الفضاء بين الكواكب التي تدور حولي، ورسمتُ دوائر كثيرة في الهواء. ابتعدتُ عن السرير قليلاً والشموع ما تزال تشتعل هناك، لأحضر كرات الفلّين التي جلبتها عمّتي من أجل مجسّمات العلوم للمدرسة. بحثتُ عنها في خزانتي ولم أجدها، إلى أن رأيتها داخل أدراج مكتبي. تعرّقتُ من حركتي المتسارعة للبحث هنا وهناك، فقرّبت الستائر والأغطية من الشموع وحوّطتها في زاوية أضيق كي

لا تنطفئ، وفتحتُ المكيّف، ثم قفزتُ على السرير. بدون أن أشعر، وقعت كرة من كرات الفلّين الصغيرة على إحدى الشموع، فاشتعلت. لم أعرف ماذا أفعل، أزحتُ قميصي عنّي وحملتُ به الكرة، محاولةً إبعاد الشعلة الملتهبة عني. وقعت الكرة عدة مرات، فأعود لحملها، إلى أن وصلتُ إلى الحمام ورميتها في كرسي الحمام، ودلقت عليها الماء حتّى أخرجت من بطنها الدُخان الكثيف وتبخّرت.

أف، حمداً لله، لم يحدث شيء أكبر. أخذتُ قنينة العطر من على مكتبي ورششتُ الغرفة، حتّى كُدتُ أختنق من كثرة الرائحة التي امتزجت كيميائياً، بين العطر والدُخان. خبّأتُ قميصي تحت السرير، وأخذتُ أمسح البقعة السوداء في الحمام، إلى أن اختفت.

لم تأت عمّتي لتتفقدني اليوم، هذا أفضل كي لا تشاهد ما حدث. نمتُ ونسيتُ أن أرتدي قميصاً آخر. لا بأس، فأنا لن أشعر بالحرّ هكذا.

يوم الجمعة.

استيقظت عند العاشرة والنصف. لم أغسل وجهي، ارتديت قميصاً لا يتناسب أبداً مع لون بنطال بيجامتي، لكن لا يهم، أريد أن أخرج قليلاً قبل الصلاة.

الأجواء هادئة دوماً يوم الجمعة، الدكاكين تُغلَق والناس تتطيّب وترتدي أجمل ما لديها. خرجتُ قبل الصلاة بقليل، إلى العمارة المعتادة. التقيت بصديقي الجديد مفرح، جلستُ معه قليلاً، ثم أمرني بالرجوع إلى المنزل حتّى يتأهّب للصلاة.

عدتُ إلى المنزل مُجبرة. كان عمّي سيخرج بعد عشر دقائق. تظاهرتُ باللعب مع القطّة، تسابقت وإياها في الباحة الأمامية إلى أن تعبت. كنتُ أفوز دائماً. حملتها ووضعتها على فخذيّ، ومسحتُ على رأسها. كانت تحاول لعق أصابعي. لم يتبقّ شيء لم تدخله إلى فمها، وتريدني أن أدعها تقتات من يدي أيضاً! هذا لن يحدث. نادتني عمّتي من النافذة كي أستحمّ فأنظّف نفسي من الوساخة التي تسبّبتُ بها لنفسي. ودّعتُ قطتي وولجتُ المنزل.

استحممت وارتديت ملابس جديدة. لم أرتدِ بيجامتي القديمة كما كُنت أفعل، حتّى أنني سرّحتُ شعري وجعلته مرتّباً لأول مرة. نادتني عمّتي عائشة كي تعلّمني كيفية الصلاة فنصلّي معا، لكني رفضت بكل بساطة وذهبتُ لأنتظر الغداء في المطبخ. معدتي لم تهدأ. كانت أمعائي تتشاجر وتُزقزق. لم أستطع الانتظار. أحضرت كرسياً من كراسي المائدة، وقرّبته من القدر حيث كان يطبخ الأرز. تلذذت بالرائحة. لم أكن أعلم بأن الطعام، قبل أن يستعمر بطوننا، يُخرج رائحة زكيّة كهذه. فتحتُ الغطاء، فإذا بي أرى حبّات الأرز بين اللون البرتقاليّ الغامق، والأصفر الفاتح، يتخللهما اللون الأبيض. نزلتُ من على الكرسي، جلبتُ ملعقة ورحتُ لأتذوّق. أكاد أجزم بأنني لم آكل مثل هذا الطعام من قبل. أبداً، أبداً. أكلتُ حتى شبعت. أخذت عبوة كولا من الثلّاجة، وعدتُ إلى غرفتي.

غداً السبت، باستطاعتي السهر هذه الليلة. أخذت أرتّب كل ما

أحتاجه لسهرتي، الشموع، غطاء آخر من غرفة الخادمة، مجسّمات هندسيّة مختلفة تتيح لي رسم أكثر من شكل معيّن. أتت عمّتي عائشة وطرقت الباب.

- تعالي لنتناول الغداء.

أجبتها بأنني لم انتظر وتناولتُ طعامي قبلهما، فتركتني وتابعت عملي.

حين انتهيا من تناول الغداء، دخلا غرفتهما لقيلولتهما المعتادة. هذا وقتي الذي أستطيع به الخروج للّعب قليلاً، بانتظار أن تبدأ المحلّات باستقبال زُوّارها. أخذت عشرين درهماً من مصروفي الخاص، وصرفت بعض الوقت في ملاعبة القطة، ثم خرجت لأشتري لي بعض الطعام.

لمحت مفرح من بعيد، ركضتُ نحوه. جلستُ في حجره، وأخذ يحكي هذه المرّة بلا توقّف. كان ينصحني بكيفية التعامل مع المواقف التي تتطلّب مني الثقة بالنفس، أن لا أخشى شيئاً، وأن أدع عقلي يُقرّر ما يريد. لم أفهم كثيراً ما يقول، لكنّه حاول إفهامي بكل ما أوتي من قدرة على الإقناع.

طالبته بحكاية، كمكافأة لإصغائي لحديثه الطويل الصعب. تحركنا من مكاننا كي نتجنّب حرارة الشمس، ودخلنا أحد الممرّات الضيقة التي يمرّ بها الناس لأعمالهم ودكاكينهم. جلسنا على الأرض. أسند مفرح ظهره إلى الجدار، ونمتُ أنا على فخذه. كان يرى عيني

وهو يحكي لي الحكاية، ويمسح على شعري ويبتسم. أذّن العصر، فتركني وراح ليصلّي.

بقيت في مكاني متسمّرة انتظر بأن يفتح العامل دُكانه، لأشتري ما أريد وأعود للمنزل. حدث ما انتظرت، وعُدت إلى البيت وأنا آكل الآيس كريم وبيدي الأخرى الكيس الذي يحمل طعامي وحاجيّاتي. شعرتُ بالنعاس، فتمددت وغفوت ولم أستيقظ إلا بعد الساعة الثامنة مساء. كنتُ متكاسلة إلى حدّ ما، ولا أرغب بفعل أي شيء، لذا بقيتُ في سريري ربّما ساعة كاملة أتأمل السقف والجدران. ثمّ أتت عمّتي لتوقظني، وبختني قليلاً، قالت من الخطأ أن أنام وقت العصر وأستيقظ متأخرة، وأضافت أن نوم العصر يسبّب الجنون والعصبيّة.

قمت وغسلت وجهي بالماء الفاتر، وخرجتُ لأجلس معها في الغرفة العلويّة حيث نشاهد التلفاز إلى أن يصل عمّي فارس ونتناول العشاء معاً. وما هي إلا خمس دقائق حتى دخل، فانتقلنا إلى المطبخ للعشاء. وبرغم أنني لم أكن جائعة، إلا أنّهم في هذه الأيّام يتفنّنون بالطبخ وبالطعام اللذيذ الذي لا أستطيع مقاومته، وأشعر بلعابي وهو يسيل ما أن أشتمّ رائحته، فكيف بي إذا تذوّقته؟

بدا عمّي متعباً، زاد عليه مؤخراً عبء العمل وأصبح يعود متأخراً فينام فوراً. أما عمّتي، فتشاهد فيلماً أو اثنين قبل أن تنام، لتقضي على الملل الذي أصبح يتآكلها. شاهدتُ معها فيلماً، ثم دخلت الغرفة وأغلقتُ على نفسي.

أخرجتُ مقادير السهرة ورحتُ أضعها أمامي على السرير. هذه المرّة، وضعتُ عدداً أكبر من الشموع وبأحجام مختلفة، خمس شموع، كي يزداد الضوء وتصبح الحركة واضحة. أشعلت الفتائل وأمسكتُ بيدي كرتين، وبالأخرى رسمت صقراً يطير. تخيّلتُ بأن هاتين الكرتين هما الفريسة التي يحلّق الصقر من أجلها، ويريد أن ينقضّ عليها. الآن، أصبح قريباً منها. واحد، اثنان، سينزل، ثلاثـ... وقعت الكرة مرّة أخرى على الشمعة الأكبر حجماً. تراجعتُ قليلاً، كانت تشتعل بسرعة، فلم أستطع إخمادها. حاولتُ إخراجها من الشمعة، لكنّني لم أستطع. ماذا أفعل؟ تزايدت النّار وتطاير الشرر إلى الستائر. يا الله، غرفتي تحترق. إنني أختنق. الدخان أصبح كثيفاً، والدار بدأت تتلّون بلون الجحيم.

نزلتُ بسرعة من على السرير ووقفتُ أراقب من بعيد لعلّها تنطفئ وحدها. لكنّ ما هذا الغباء، كيف ستنطفئ!! فتحتُ المكيّف، ظننتُ بأن الهواء سيحدّ من اشتعالها ويوقفها. لكنّه لم يفعل، بل كان يزيد من حجمها. أغلقته فتزايد الدخان الكثيف. كل ما كنت أفكّر به هو أن أخرج من الغرفة، قبل أن أختنق ولا يعلم بما حدث أحد. لكن هيهات، فقد وصلت الرائحة إلى غرفة عمّي وعمّتي. فما أن فتحتُ باب غرفتي، حتّى رأيتهما يركضان نحوي.

لم يتمالك عمّي نفسه وأخذ يصرخ بكل قوّته عليّ. حضنتُ قدمّي عمتي وبكيت، كنتُ خائفة جدّاً مما رأيت. اتصلا برجال الإطفاء، فجاؤوا ليطفئوا الحريق. كان الحريق يزداد شيئاً فشيئاً، حتّى احترقت

غرفتي بأكملها. الستائر، الأغطية، الأريكة، وحتّى ملابسي التي بداخل الخزانة، كُتبي المدرسيّة، وكل شيء. لم يتبقّ شيء. حتّى الهدايا التي لم أستخدمها ولم ألعب بها بعد، احترقت.

أصابتني الكحّة بعد ذلك، ولم تهدأ. ذهبتُ للمشفى. خافت عمّتي من أن يصيبني الربو. لكن، كما قال الطبيب، استنشقت الكثير من الدخان، ويجب تزويدها بالأوكسجين كي لا تصاب بنوبات ربو، أو بضيق التنفّس.

عدنا إلى المنزل، وأنا مُحبطة والحزن يتفاقم بداخلي. كان عمي صامتاً وكنت أعلم بأنه لن يبقى هكذا طويلاً. الحديث الذي يجري في رأسه، تفوح رائحته بجانبي. أعلم بأنه غاضب، لقد حرقت منزله، لكنني لم أكن أقصد.. لم أكن أريدهما أن يتأذيا بسببي. حاولتُ كسرَ الصمت، اعتذرت كما علّمني مفرح، لكن لا أحد أجابني. خفتُ أكثر. لا أعلم ما قد يُصيبني بعد أن أصل إلى المنزل، ولا أعرف حجم الكدمات التي قد تعيدني إلى المشفى، فجر هذا اليوم.

اقتربنا من المنزل، نزلتُ بكلّ هدوء وبخطوات متثاقلة. كانت ساقاي ترجفان كساقيّ راقصة شرقيّة. كنتُ أمشي قليلاً، ثمّ انظر ورائي. دخلت غرفة الألعاب التي بالأسفل، وأغلقتُ على نفسي. جلستُ في ركنٍ قصيّ إلى اليمين، ووضعتُ الدمى الكبيرة حولي حتّى لا يُرى منّي شيء. قلبي ينبض بشدّة وكأنه سيخرجُ من صدري. كانا يعلمان بأنني سأتواجد هنا. دخل عمّي وأغلق الباب خلفه. كان وحده.

لم تكن عمّتي بجانبه. أسيتحدّث معي كما في المرّة السابقة؟ أسنبرم اتفاقاً آخر، أم سيحرمني من الهدايا في نهاية كل أسبوع؟

وأنا أفكر، مهزومة، إذا به يرمي عليّ أحد الألعاب المصنوعة من البلاستيك. وقعت على قدمي التي لم تشف بعد تماماً من كسرها، وآلمتني، لكنّني لم أرد البُكاء. شيءٌ فظيع أن تشعرَ بالرعب في المكان الذي يُقال لك إنه منزلك! غطّيتُ نفسي بالدمى أكثر، وأغمضتُ عيني. أمسك يدي بقوّة، وحملني بيدٍ واحدة إلى مستوى عينه.

- إلى متى هذه المشاكل يا صبيّة، إلى متى؟ أحرقتِ منزلي وفضحتني.

انهمرت الدموع بلا همس، كما لو أنها كانت تهطل بغزارة، منذ أمس، وقد مُنعَ عليها ملامستي حتّى لا تجرح خدّي. شكلي يدعو للشفقة، لكنّ عمي لم يكن يرى أمامه إلا المشاكل التي سببتها له، العار الذي ألحقته به، وبيته المحترق نصفه. رماني بقوّة على الأرض، فارتطم رأسي بالدمية الكبيرة، وجسدي بالأرض. لم تستطع عمّتي عائشة الدخول. كانت تبكي، وتطرق الباب بقوّة، وتأمره بأن يتوقّف عن ضربي، لكن لا من سميع ولا من مجيب.

ضربني ورمى الأشياء التي بجانبه علي. لم أستطع تمالك نفسي أكثر، فبدأت أصرخ بعد أن رأيتُ جسدي الأحمر والدم يخرج من الفوّهات الصغيرة التي تفتقت بين مسامات جلدي. بحّ صوتي، تعبَ جسمي، وتعبَ هوَ الآخر، فأخذ يلهث ويتنفس بصوتٍ عالٍ. فتح الباب وأخيراً، خرج من المنزل. أتت عمّتي تركض نحوي. جنّت من

هول الصورة التي رأتها أمامها. كنتُ ضعيفة جدّاً، لم أقوَ على الحركة ولا حتّى على فتح عيني. أخذت تبكي وتحضنني. بكيتُ معها كثيراً. كنتُ أهذي باسم عيسى، لم أسكت، كنتُ أريد أخي عيسى.

لم تأخذني إلى المستشفى، تخاف على زوجها من التحقيق. حملتني إلى غرفتها، وقامت بتضميد جروحي، ثمّ وضعتني في سريرها كي أرتاح. نمتُ من دون أن أشعر بما حولي. دخلتُ في غيبوبة نومٍ عميقة. استيقظت بعد ساعة من الزمن. كانا يجلسان على الكرسي الذي أمام سريرهما، يتناقشان بأمر الحريق الذّي حلّ بمنزلهما. انكمشتُ تحتَ الغطاء دون حراك، واسترقتُ السمع لما يقولانه.

- أنتِ من أردتِ إحضارها إلى المنزل، لقد قمنا بتربية فتاة لا نعرفها، وستكون هيَ السبب في هلاكنا جميعاً. ستعود إلى حيث أتت غداً، لا تجادليني في هذا الأمر أبداً. انتهى.

حتّى هما يريدان التخلّي عنّي، لم يتحمّلاني بضعَة شهور، فكيف لو عشتُ معهما العمرَ كلّه! لن أعود إلى الميتم مرّة أخرى. لا أستطيع. لا أريد أن أكون بلا عائلة. على الأقل خذاني إلى عيسى، أرجوكما. لو أن أمي سارة هنا فقط، لو..

نهضت من السرير وهما ما يزالان يتحدّثان بالأمر. اتكأتُ على الطاولة المقابلة للسرير، ثم تساءلت: لكن، إلى أين؟ غرفتي لم تعد غرفتي! حتّى هذا المنزل برمّته لم يعد منزلي. يجب أن أتصرّف، قبل أن يأخذاني إلى الدار مرّة أخرى.

نزلت الى غرفة الجلوس وجلست أتابع التلفاز بلا إحساس. لم

أكن أعلم ما أشاهد أصلاً، فقط هكذا وجهي يرى ولا يسمع. تبعتني عمّتي عائشة، لجلسة وداعيّة أظنّ. لن أتركها تجلس أو تقول لي كلمة واحدة.

خرجتُ فوراً من المنزل. قابلتُ مفرح أمام الدُكّان. أخبرته عن كل ما حصل. اتفقنا على أن يأخذني إلى رأس الخيمة. جدتي هيَ سبب كل ما أعيشه حالياً، لن أدعها تفلتُ منّي هذه المرّة. سأجعلها تموت بيدي. أجل، ستموت.

أخبرني مفرح بأن أخرج إليه عند الساعة الواحدة، بعد منتصف الليل، لنتحرّك إلى مدينتي. سيتكفّل بكلّ شيء. سيذهب الآن ليشتري لي ملابس جديدة، بدلاً من تلك التي احترقت. قلبني فجأة ليكون ظهري نحوه. اعترضت، إنّكَ تؤلم ظهري.

- يا مُغفّلة، كيف سأبتاع لكِ ملابس جديدة وأنا لا أعرف مقاسكِ! أريد أن أرى رقم قميصك.

ضحكنا من الموقف. عدتُ إلى المنزل وأنا مُطمئنّة. أتت عمّتي لتخبرني بأنها وضعت لي فراشاً في غرفتها، لأنام على الأرض. رفضت. قلتُ لها بأنني أريد أن أبقى بعيدة عنهما وأن أنام برفقة ألعابي. لم يتفوّها بكلمة ولم يخبراني بأن غداً هوَ يومي الأخير معهما. لم أخبرهما بأنني أتعرّض للهجر الثالث الآن.

الثانية عشرة تماماً. خرجت من الغرفة لأتأكد بأن الجميع نيام. أخرجتُ معطفي الذي كان في غرفة الخادمة، لبستُ الحذاء الطبّي الذي أحضرته عمّتي والذي، لحسن حظّي، لم يحترق إذ كان عند باب

المنزل، ثم ارتديتُ فستاناً بسيطاً. انتظرت الساعة لتصير الواحدة، ثم خرجتُ بكل هدوء. كان مفرح ينتظرني أمام المنزل، بسيّارته الفارهة التي لم أتوقّع بأنه يمتلك مثلها!

ركبتُ ولم أغلق باب المنزل ورائي. التفتنا إلى بعضنا، ثم انطلقنا إلى رأس الخيمة. أعلم بأن مفرح سيقف بجانبي، ولن يتركني، ولن يهدأ باله إلى أن يطمئنّ عليّ. أعرف أنه سيحميني من تلك الساحرَة، وسأعود إلى منزلي مع أخي عيسى. مفرح هو بطلي الذي أتمنى لو كان أبي.

11

خرجتُ من المنزل مثلَ سمكة تحاول النجاة، وتشعر بالاختناق كلّما ابتعدت عن منزلها. تلفّتُ ذاتَ اليمين وذات الشمال حتّى لا أُكشَف. لا صوتَ غير الحفيف والهفيف بين أوراق الأشجار، في حديقة المنزل التّي تقدّمتُ فيها بضع خطوات، لا أكثر. ارتديتُ فستاناً فرحاً يوحي بأنّني ذاهبة للمصالحَة. عندما اقتربتُ من السيّارة، رسمتُ ابتسامةً مصطنعَة تخفي خلفها الكثير من الأفكار المتلاطمة التي تُريد الخروج بسرعَة، لكن لم يحن وقتها بعد. نظرتُ إلى الخلف مرّة أخيرَة، فسَرت في عروقي حُمّى جعلتني أتصبّبُ عرقاً. أعرف بأنني سأشتاق إلى العمّة عائشة وأنّني أخطأت في فكرَة الهرب. لكن هذا أفضل من العودَة إلى الميتَم.

تنهّدتُ واتجهت إلى السيّارة. فتحتُ الباب الخلفي، رميتُ حقيبتي الصغيرَة الخاليَة إلا من دفتر الأرقام، وبيجامتي التّي أحبّ، وما تبقّى من مصروفي، ثم أطبقته وجلستُ في المقعد الأمامي بعد أن ألقيت التحيّة على مفرح. سألني إن كنت لن أحتاجَ شيئاً آخر من هذا المنزل، فأكدت له أن لا، ثم انطلقنا.

بالرغم من أن مفرح لا يزال غريباً عليّ، لكنّني فضّلتُ البقاء معه على أن أعود إلى الدار. مررنا أمام أعمدة الإنارة التي كانت تبرقُ قليلاً،

ثم تهدأ وتنام تعبة من الوقوف. الشوارع فارغة تماماً. لا أحد يخرج في هذا الوقت. لم أر إلا سيارة أو اثنتين لشُبّان يقضون أوقاتهم في الخارج، ولا يعودون إلا بعدَ أن تدقَ أجراس الفجر.

في البداية، لم نتحدّث مفرح وأنا، ولم نهمس حتّى. نمت ربّما ربع ساعة استيقظت من بعدها مفزوعة، فتوقّف مفرح على جانب الطريق ليسقيني الماء ويقرأ على رأسي من السُور التي يحفظ. ظنّ أنني رأيت كابوساً أفزعَ قلبي. لكنّه لم يكن كابوساً. لقد خفتُ من أن يأخذني هوَ أيضاً إلى الدار. لم أعد قادرة على الثقة بأي مخلوق على هذه الأرض. سألني عمّا رأيت، فاكتفيت بالصمت وتحرّكنا.

مررنا بشوارع طويلَة ومُلتويَة، مائلَة ومُثيرَة في انحناءاتها. جميع الناس في جحورهم ينامون، فمن يودّ الخروج الساعة الثانيَة فجراً وإلى مدينَة أخرى تبعد ثلاث ساعاتٍ أو أكثَر سنقضيها بالتثاؤب والملل والإصغاء إلى صمت مفرح الموحش، وأحياناً بسماع الأغاني المصريّة القديمة التي يُزعج دماغي بها. منذُ أن تحرّكنا، وأنا أسند رأسي الى النافذَة أراقب النجوم، تلكَ المصابيح الصغيرَة المتلألئة في البعيد. جمالُ السماء لا يُوصَف، ربّما لأنّ الطريق هُنا بلا أضواء. لأوّل مرّة أرى السماء هكذا، مزيّنة بأضواء تبرق وتختفي.

- السماء أجمَل نهاراً أم ليلاً ؟

سألني مفرح، محاولاً كسرَ الصمت الذي بيننا.

- أحب الليل أكثر، لكنّني أحب السحاب أيضاً، واختباء الشمس خلف الغيم.

ابتسم مفرح، فاستدرت عنه لأكملَ تتابع اللوحَة المرسومة على السماء. لكن عيني صارتا تُغلَقان وحدهما، أُجبرهما على أن تبقيا مفتوحتين، فتعاودا الكرّة. يقع رأسي فأنتبه، وأتمتم في سري: يا رب، اجعل مفرح لم يرني، وإلا ضحكَ علي عمري كُلّه. اعتدلتُ في جلستي، رافعةً رأسي إلى الأعلى. حسناً، دقيقتان على الأكثر وسينكسر. الى أن نمت جانبياً، ناحية صديقي. تأمّلته قليلاً وأنا أفكر بما يفعله لي، إلى أن غططتُ في نومٍ ثقيل لم أصحُ منهُ إلا وقد ألقت الشمس تحيّتها على العالم.

كان مفرح متوقّفاً على جانب الطريق ونائماً. أظن بأننا وصلنا، لكنّهُ متعب، لذا لم أشأ أن أُوقظه. رأيت أمامي عبوّتين كبيرتين من الماء أعتقد بأنّه ابتاعهما قبلَ أن نتوقّف. ارتشفتُ الماء، ثُم سرعان ما شربت نصف العبوّة وكأنّني أغوص فيها. لا أعرف ماذا أفعل الآن. ترجّلتُ من السيارة ورُحت أراقب المكان حيث توقّفنا. إنها صحراءٌ قاحلَة لا يوجد فيها شيء. الجمال العابرَة تنتشر يميناً ويساراً، وهُناك من بعيد ازدحام في الشوارع. الجميع ذاهبٌ إلى عمله. تأملتهم قليلاً ثم شعرتُ بأنني أريد التبوّل، لكن أين؟ وأنا أخجل من مفرح، فهل أوقظه وأطلب منه ذلك! أم أتبوّل خلف السيّارة ولا أحد يراني غير الحيوانات الصغيرة والسحالي التي تختبئ بجانبنا.

تقدّمتُ نحو النافذة، كان مفرح ما يزال غاطاً في نوم عميق أعرف بأنه لن يستيقظ منه إلا إذا أيقظته. اختبأتُ خلف السيّارة. لكن لا، هناك شجرة قريبة رحتُ خلفها وفعلتُ ما فعلت، ثم عُدت إلى السيّارة،

وجعلتُ أرتب الكلام في مُخي حتّى لا أتلعثم عند سؤاله عما يؤرقني. لقد صبرتُ بما فيه الكفاية. أعني، قبل أن أودّعه وأصل إلى منزل جدّتي، يجب على الأقل أن أعرف من يكون، وما هو سبب ارتباطه بي!

درتُ حولَ السيارة، فتحت الباب جهة مفرح وجلست ألعب بالرمل أمامه، إلى أن استيقظ وقد شَعَرَ بالنسيم يداعب ملابسه وبالبرد، ففتح عينه ورآني متربّعةً على الأرض.

- هل جُننت؟ ماذا إن ابتلع العقرب أصابع قدمك؟ ماذا لو أتى أحد وخطفك؟ كيف تخرجين من السيارة؟

- هل يستطيع العقرب أن يأكل، أم أنه يقرص فقط؟

سألتهُ بتعجّب، ولم يجبني بل رمقني بنظرة ثم التفت عنّي وهو يمسح عينيه. أخذ قنينة المياه التي بجانبه وغسل بها وجهه. توضّأ بما تبقى من الماء، قابل القبلة، وصلّى صلاة الضحى.

راقبت تكبيراته، ركوعه وسجوده، وحتّى يده التي ارتفعت لتدعو الله وتبتهل. وما أن انتهى، حتّى ابتسم لي مقترباً منّي.

- ها، تحدّثي، أعلم بأنّ في جُعبتكِ الكثير من الثرثرة. أخبريني.

لم أتعجّب من سؤاله، أحرجني قليلاً، لكن كيف له ألّا يعلم بما أخفيه في صدري وهو الذي يظهر لي في كل مكان وزمان؟ سألته عن حقيقته وما الذي يفعلهُ معي! لم هذا الإحسان المُفرط؟ ارتسمت مسحَة حزن على وجهه، أعادته عشرين سنة إلى الوراء. كان يغلقُ على هذه القصّة في صندوق ذكريات لا يفتحه أبداً، وهو لم يجرّب حتّى التفكير فيها إلا بعدما سمع عنّي.

12

صمتت أبواق السّيارات فجأة، وخفّفت الرمال من قفزها على الأرض. حتّى الشمس غطّت عيونها بالسحاب حتّى لا تشاهد الحُزن في عيني مفرح. يُغرق جسده الكتمان، ويُتعبه سؤالي المستمّر عن حقيقته. أيكون هو والدي. كيف له أن يستمر بالصمت وعيوني تترصّد الحكاية بلهفة، وشفتاي تقوّستا كطفل سُرقَت منه لعبته، منذ أن لاحظت التجاعيد التّي ارتسمت على خدّيه والغمّ الذي أحاط به.

اتكأت بجسدي على قدميه، منتظرةً أن يسرد لي تفاصيل حكايته. استجمع مفرح قُواه وأمسك بيدي، ووضع الأخرى على راحتي. حاول ألّا يبيّن لي همّه وحُزنه، لكنّه لم يفلح، فانهمرت الدموع من عينيه دماً. ترك يدي ومسح دمعه بطرف كمّه، ثم أمسك بحفنة من الرمل وتركه ينسلّ من بين أصابعه ويتناثر مع الهواء، قبل أن ينظر إلى البعيد قائلاً:

الحاجة، الحاجة هيَ ما أوصلتني إلى هذا الحال يا هند. كُنت لا أرى في حياتي غيرَ إخواني وأخواتي الذين هم في تزايد وتكاثر كل يوم، وكأن والدتي أرنبة أو قطّة. لم أكترث، المهم أنّي كنت أعيش طفولتي وألعب. ثم أتت عائلة في أحد الصباحات لتأخذني. وقتها علمتُ

بأنني يتيم ووحيد، وأنهم ليسوا بإخواني. رفضت الذهاب وأصبحتُ فتىً مشاكساً جداً. عندها، بَهتَت الألوان في عيني، السحاب، الشمس والمنزل وحتّى وجوههم، تحوّلت إلى اللون الأسود. قرّرت أن أثبت لهم بأنّني رجل، على الرغم من عمري الذي لم يتجاوز الاثني عشر عاماً، وأني لا أحتاج إلى عائلة تُربّيني! غضبت، لا أحب أن يتحكّم أحد بي، أهانوني، ثأرتُ لرجولتي، كسرت الصحون، ضربت الفتيات. قالت لي إحداهن يومها: أنتَ ما زلتَ صبياً، حتّى أنه لم تنبت لكَ شعيرات لشاربك وذقنك. احمرّت عيناي غضباً، أنا رجل. كُنا في المطبخ نتناول وجبة الغداء. هُنا تحت أصابعها بالضبط يا هند، غرزت لها الشوكة. كانت صغيرة، لكنَها أنتجت حُفراً عميقة ودماءً غزيرة نُقلت على إثرها للمشفى. بكت وبكت. خفت في البداية أن تموت لأنها نزفت كثيراً، لكن لم تمر دقيقة إلا وأنا غارقٌ في الضحك. تقولين بأنني لستُ برجل ها؟ ثم سمعت خطوات امرأة ترتدي الكعبَ العالي وتركض، فلم أعرف ما الذي ينبغي عليّ فعله. توقّفت عن الضحك ورحت أبحلقُ في صحني وكأنني لم أفعل شيئاً. أتت المشرفة وصفعتني! ثم أمسكتني من طرف قميصي وألقت بي في الخارج، صارخة: أنتَ فتىً سيّئ، لا مكان لك بيننا.

تجاهلت الأمر، قلتُ بضع ساعات وتُدخلني. لكن الليل عسعَسَ، وتناثر اللؤلؤ في السماء. طلبت منها أن تدخلني، لكنها رمتني بأغراضي وقالت: قلت لكَ لا مكان بيننا، ثم أغلقت الباب!

ماذا يعني ذلك؟ حاولت الدخول من النوافذ والأبواب الخلفيّة،

لكنّها أقفلتها جميعاً. جرّب أحد إخوتي أن يُدخلني من فُوّهة الهواء في دورة المياه، لكنّني لم أكن طويلاً كفاية حتّى أقفز إلى الداخل. ظللتُ ثلاثة أيام على المنوال نفسه، إلى أن استسلمتُ ورحتُ أجوب شوارع أبوظبي، أنا وحقيبتي الصغيرة. لم أجد لي مكاناً يؤويني ولم أجرؤ على التحدّث إلى أي شخص، مخافة أن يعرف من أين أتيت فيرسلني إلى الشرطة. لطالما كانت الشرطة عدوّي الأكبر. كلّما أخطأت في أمرٍ ما، قالت لي المشرفة المتعجرفة: سأخبر الشرطة عنك وستُسجن. كنتُ أختبئ خلف الدكاكين الصغيرة وأتناول طعامي مع أصحابها على الأرض، فوق الجرائد. عطفوا عليّ أكثر من تلك المرأة المتسلّطة. في الليلة الأولى التي بتُّ فيها بالخارج، تعمّدتُ أن أختبئ داخل أحد المحال حتّى يُقفل الباب عليّ. هكذا لن يلحق أحد بي الأذى وسيكون لديّ الماء لأشربه عندما أشعرُ بالعطش. عدت في اليوم التالي للدار، لكنّها رفضت إدخالي مرّة أخرى. لم تكن قد أخبرت المسؤولين الأعلى منها بأمري، لأنني يتيم وليسَ لي أحد. تحظر قوانين الدار أصلاً طردنا، إذ إلى أين نذهب ومن لنا؟ لو كُنت أعرف ذلك آنذاك، لطردتها أنا قبل أن تفعل هيَ ذلك.

رجعتُ إلى الدكاكين، وبقيتُ على هذا الحال، إلى أن أخذني أحد البقّالين بعد أن عرف قصّتي، فعملتُ لديه حتى أصبح عمري ١٩ عاماً. كُنت أوصل الأغراض والحاجيّات إلى المنازل، على دراجتي الهوائية، سكنتُ في مسكنه ولبست من ملبسه، وأكلتُ من مطبخه. حتّى لغتي صارت مُكسّرة، أتحدّث الأوردو، وقليلاً العربيّة. طبعاً لم أكمل تعليمي ودراستي، عمري الآن يتجاوز الثلاثين ولا أزال

بلا شهادة. لكنّني عملت. جمع لي صاحب البقّالة راتبي، وعاملني كأبنائه. جلب لي الهدايا والملابس الجديدة للعيد، وكان يصحبني مع أطفاله إلى مدينة الألعاب، برغم بساطة حاله. سبعة أعوام جمعتُ فيها ما يكفي لأفتح شركة مقاولاتٍ صغيرة بمساعدته، إلى أن كوّنتُ نفسي وبدأ العمل يزدهر ويكبر. بالمناسبة، هي البقالة التي تجلسين أمامها بعد المدرسة، حيث التقيتُك.

- إذاً بعد الذي حدثَ معك، كيف عرفتني؟ ولماذا تحدّثت إليّ بالأساس! هناك الكثير من الفتيان والفتيات يتواجدون أمام البقالة، فلماذا أنا؟

حين قامت العائلة التي تقطنين معها بإحياء حفلة من أجلك، وكان الناس يتوافدون ومعهم الأطفال، تعجّبتُ من كمّ الصغار وأنا أعلم بأنّ لا اطفال لديهم في هذا المنزل. سألتُ الجيران عن السبب فأخبروني عن قدوم طفلة جديدة. رقّ قلبي. فرحتُ كثيراً وقرّرتُ أن أصبح صديقك حتّى لا تذوقي ما ذقت وأكون بجانبكِ إن احتجتِ ذلك. هذا كل ما في الأمر.

- ولماذا لم تتزوّج؟

الزواج لأمثالنا يا هند صعب، فلا أحد هنا يعترف بنا... إلى هنا تنتهي الأسئلة لأن ما يعقبها من إجابات تكبرُكِ سناً. يجب علينا أن نكمل حتّى نصل إلى منزل جدّتك.

همّ مفرح بالوقوف، فإذا بي أرتمي في حضنه وأضمّه بقوّة. ضحك علي، حملني بين ذراعيه وتوجّهنا لركوب السيّارة.

13

تُدغدغني معدتي فرحاً، فتطفو الحروف إلى أن تخرج من حلقي أغنية جميلة أتراقصُ طرباً مع ألحانها السعيدة، تذوب فيها الكلمات على لساني، فأستمتع بلذّة طعمها كحلاوَة قطعة السُكّر. وضعتُ يدي على النافذَة أراقب بفرح الطريق، وكأن كل من يقود سيّارته الآن، قد خرَج ليشهد فرحتي، وأُوزّع ابتسامتي على الجميع كبائعة الكبريت، لا تنتظر مقابلاً، بل ابتسامة مُماثلة. ضحك مفرح لنشاطي المُفرط بعد الحديث الطويل، مسح على رأسي.

- المعيريض، فيها بيوت مبنيّة بدقّة أمام البحر وفندق رائع.
- يجب أن تصطحبني إليه يوماً.

قلت هذا وأخرجتُ لساني، فضربني على رأسي بخفّة، ثم واصل يتبع اللوحات إلى أن وصلنا إلى المنطقة المنشودة. وحين اقتربنا من المنزل، لا أزال أتذكّر شكله وموقعه، أشرتُ له بيدي أن يتوقف. ها هو لم تتغيّر شقوقه ولا تعرّجاته على الأطراف، وكأنها تشقّقات تُربة لم يزرها المطر منذُ زمن. كانت الساعة الواحدَة ظهراً، ونحن لم يُغمَض لنا جفن إلا سويعاتٍ قليلة. رجع

مفرح إلى الفندق القريب منّا، حجز غرفة لننام ،ومن ثُم يأخذني مساء إلى منزل جدّتي. تلاشت الفرحة، فقامت معدتي تقرصني.

وصلنا الفندق، كان كقريةٍ صغيرة جبنا شوارعها بسيّارة تكفي لثلاثة أشخاص، قادنا فيها السائق إلى غرفتنا. لم يكن لدينا أيّة أغراض، كنا نحتاج النوم فقط. ارتمى كُلٍ منا على طرف السرير، حاولتُ النوم، لكنّني شعرتُ بشعور غريب، إذ كيفَ لي أن أنام مع مفرح في غرفة واحدة؟ أعتقد بأنني أبالغ، لقد قضيتُ حياتي أنام بين أبوين لا أعرفهما.

قمتُ أتجوّل في الغرفة كالسكارى، وأنا أفكّر في ما سأفعل. تصبب العرق من جبيني. هذا يوم المواجهة الصعب الذي لطالما تمنّيته وحلمت بأنّني أقتلُ فيه الجدّة. حتى أنّني حاولت تذكّر كل الكلام البذيء الذي كان يُقال أمام الدكاكين، من الصبيان والشباب، لكي ألقيه عليها دفعة واحدة. مرّ الوقت بطيئاً جداً، وكأنّنا في فوّهة ساعة الرمل، نمرّ أنا والدقائق منها حبّة حبّة، قطرة قطرة.

صارت الساعة السابعة مساءً، داهم مفرح حلقة أفكاري، فأزاح الخيوط كلّها. حتّى أنّني نسيت ما كُنت أفكّر فيه.

- قُل إحم، قُل هند، ألم يعلموك ذلك من قبل؟ لا أظن.
- أظنّ بأنّكِ اشتقت للصفع، تأدّبي وإلّا.

همهمتُ:

- نعم، فيداكَ الضخمتان قادرتان على كل شيء.
- حذار، أنا أسمعكِ يا طفلة.

يا الله، لماذا يسميني طفلة، أنا لستُ طفلة. نهضتُ من مكاني ورحتُ إلى المطبخ الصغير في طرف الغرفة، فتحتُ الثلاجة، أخذت قنيّنَة ماء وشربتها. في هذه الأثناء، عاد هو ليكمل نومه على الكنبة. لا أعلم متى سيشبع من النوم.

- متى ستأخذني إلى منزل جدتي؟
- بعد قليل، ألم تذكري أنها تنام قبل التاسعة لأن لا أحد معها حتّى تبقى مستيقظة!
- ستودّعني الآن ؟

قلتها بصوت هادئ يشوبه الحزن، فأجابني بنفس النبرة ولكن بصوت منخفض

- بعد قليل.

ثم قام كي يتهيّأ للذهاب.

14

أنزلني مفرح وودّعته، بعد أن وعدتهُ أن أتصلَ به كل أسبوع، ووعدني بأن يزورني كُلما استطاع. ذهبتُ إلى غرفة السائق حيث انتظرتُ الخادمة كي تنام. يخرجُ السائق دائماً في هذا الوقت، عندما لا يجد ما يفعله، فيتجوّل بين الشوارع. وجدتُ في غرفته الحبل الذي يخرِف به الرطب. خطرت لي فكرَة، فحملته معي. أعتقّد أنّ الخادمة نائمة الآن، والجدّة المخبولة صلّت فرضها وراحت لتنام أيضاً.

دخلتُ المنزل مُتسلّلة. الأنوار خافتة، الأرواحُ صامتة، والعيون نائمة. هيا يا هند، ادخلي، ادخلي. فتحتُ باب غرفتها، فأصدَر صوتاً كأصوات أفلام الرعب التي لم تعد تُرعبني. رائحة الحناء تملأ المكان، ولا ضوء إلا على الطاولة التي بجانب رأسها. دَسَستُ نفسي عند طرف السرير من الأمام، تمدّدتُ على الأرض بعد أن أخرجت الحبل بلا أي صوت أو همس، وربطتُ قدميها بحدائد السرير. دنوتُ من رأسها، وقفزتُ بغتةً على صدرها أو أعلى، وكتمتُ أنفاسها بيدي. استيقظت وجَحُظَت عيناها. صارت تتوسّل، لكنّني لم أكن أسمع. أخذتُ كوب الماء الذي بجانب الأبجورَة ورششتهُ على وجهها، حتّى تسمع وتعي

ما سأقوله. وضعتُ يدي على عنقها كي أقطع النفس عنها، وجعلتُ لكلامي أن يتسلّل منّي كروحٍ أبَت البقاء داخلي.

- جعلت من قدري حياةً سوداء لا يطير في سمائها إلا الغربان. قتلت فيّ البراءة، قطفت طفولتي ودُست عليها. ما فعلتهِ بحقّي، لا يُغتفر. كيف تجرّأت على بتري! ومن ذا الذي سمحَ لكِ بطردي من حياتي؟

انسلّ الكلام من حلقي، وقلتُ ما لا يُقال. كانت تستنجد لكن صوتها لا يُسمع، وآهاتها لا تُحرّكَ بي الرأفَة. لم أشبع لم أشبع. أخذتُ الوسادة من جانبها ووضعتها على وجهها. حاوَلت المقاومة، دفعتني بيديها المُكتنزتين بالتجاعيد، محشرجة: ستبقين معي، رضيت والله رضيت. وما ينفعني رضاكِ الآن وبقائي؟ بعدما حكمت على هنائي بالإعدام وجعلتني أتخبّط من منزل إلى منزل، ومن عائلة إلى عائلة !!

ضغطتُ على الوسادة أكثر، حتّى لم أعد أشعر بمقاومتها. إنّها تستسلم أخيراً. إنّها تموت. همستُ بكل ما في قلبي، وشفتاي لا تزالان مطبقتين: ستموتين على يدي. أشعر بأن العالم آذانه كُلّها صاغية لما أقول، وقد خرست أفواه الجميع وتوقّفت أعمالهم ليشهدوا على ما أفعل. أود لو أزرع مشطها في عينيها، كما زرعت السُم و دسّتهُ في جوفي.

خرج صوتٌ حاد وقويّ من حنجرتها، استسلمت روحها تريد الخروج، إلا أنّني أخنقها بالوسادة وهي تضرب، تدفع، وتقاوم. لم

أرتعب. تحوّل وجهها فجأة إلى شخصٍ آخر، أحفظ ملامحه جيّداً. اختفت خطوط التجاعيد من حول عينيها وأصبحت شفتاها أكثر اكتنازاً. أبعدتُ يدي عن رقبتها، ورميتُ الوسادة على الأرض. أعرف هذا الصوت جيّداً. تراجعتُ إلى الوراء و تسمّرتُ في مكاني. سمعت تنهيدة. لم أكترث. كنت أراقب الملامح فقط. إنّها ماما سارَة. أغمضت عيني ودسستُ أصابعي في أذني حتّى لا أسمعها. أنفاسها تتلاحق. صرختُ بكل قوّتي: لن تنسي وجهي، سأزورك في أحلامكِ لأجعلها كوابيس مُخيفة. لن أدعكِ تهنئين في حياتك أبداً، أبداً.

15

عندما خرجت، كنت أمشي وكأنّني أدفعُ الأشباحَ من أمام عيني بيدي الصغيرتين، حافيةً، لا أشعرُ بما أمشي عليه حتّى ولو كانَ زُجاجاً. تفشّى خوفي في الظّلام الحالك، نفضتُ كُل ما أزعجني عني. أنفاس اللّيل تصدر حشرجة غريبة. الأرض تلتهب من تحتي، وأشعر بالنيران تتدفّق إلى جسدي. شعري يتطاير وملابسي تتمايل وتودّ لو تغادرني. لقد خفّ جسمي، وكأنّه دخان سيطير بعدَ حين ليعلم العالم كلّه بأنّني أخيراً تقيأتُ الدم الفاسد الذي حملتني به أمّي، وتركت الزيفَ والكذب الذي عشتُ معه لشهور.

توقفت. وتوقّف كلّ شيء عن الحركَة من بعدي. لا الشجر يُصدر صوتاً، ولا الليل يُرسل أشباحهُ إلي، ولا القمر يُضيء. نظرت إلى المنزل نظرة أخيرَة، ثم تابعت طريقي. لا أعرف إلى أين سأذهب، لكنّني أرى النور في آخر الطريق، يناديني أن لا تتوقّفي.

حثثت الخطى حتى خرجت من باب الحديقة، وما أن أصبحت

في الشارع حتى لمحته. مفرح !! لم يبرح مكانه. لم يستطع الابتعاد، فقرر أن يقضي ليلته بالقرب من المنزل.

ركضتُ إليه. سعادتي لا توصف. لقد حصل الطائرُ الجريح أخيراً على موطن.

- تمّت -

المؤلفة في سطور

نورة محمد

- طالبة طب أسنان.
- حاصلة على المركز الأول على العرب في الدولة في مجال الشعر للمجلس الثقافي البريطاني بحضور الملكة إليزابيث الثانية ٢٠١٠.
- المركز الثاني في جائزة المؤرخ الشاب لجمع وتدوين القصص والحكايات الشعبية، ٢٠١١.